حديث النيل

الطبعة الثانية

حفنى مصطفى حفنى

تليفـون المؤلـف : ٢٥٣٤٤٣٢

رقم الإيـــــداع : ٩٨٤٢ / ٢٠٠٠

مطبعة الحرف الذهبى
ت : ٥٦١٩٦٨٦

إهداء

• إلى المصرى القديم الذى ضرب أقوى الأمثلة وأصدقها فى حب النهر ، فإذا به يلملم خلجاته ، ويسكن على ضفافه ، ولم تهدأ له ثائرة إلا عندما شيد بعسله أهراماته .

• إلى المصرى الحديث الذى صار حبه للنهر قولاً وليس عملاً .

• إلى كل من دأب الجلوس على ضفاف النهر يتهامس مع قطراته ، ويغنى مع أفراحه .

• إلى كل هؤلاء وإلى القراء الأعزاء أرفع هذا الكتاب .

حفنى مصطفى

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴾

سورة القمر ، الآية رقم (٢٨)

تقـــديم

ليس بمستغرب أن يأسر نهر النيل قلب الشعب المصرى ، وأن يشغل حيزًا كبيرًا من نفسه وعقله ، ومن وجدانه ومداركه ، فهو لمصر بمثابة الروح من الجسد أينما يجرى نجد الخصب والنماء ، والحياة المتجددة ، والخير الوفير .

ورغم أنه يجرى فى أكثر من بلد ، إلا أننا نراه يَخُص مصرنا الحبيبة بما لا يخص به غيرها ، حتى كادت مصر تنفرد بكلِّ مزاياه .. وهذا وإن دل فإنما يدل على الارتباط الوثيق والحميم الذى جعل أفئدة من الناس تهوى إلى ضفافه ، فيغمر كل منهما الآخر بحبه وحنانه فيتمخض هذا الحب عن حضارة هى أم حضارات العالم .

ولم يحتل النهر الخالد هذه المكانة الكبيرة فى الأدب العالمى منذ أقدم العصور لكونه أطول أنهار العالم فحسب ، بل لأنه النهر الذى أحيا بلدًا وأوجدها من عدمٍ ، فإذا هو يخصها بنفعه ، ويعمها بخيره ، حتى لأنى أراه وقت فيضه يأتى بدرًا مستدير الوجه مبتهجًا ، باسطًا ذراعيه فى ود ، وهو يرتدى ثوب الفتى الكهول ، محملاً بالشهد هنيئاً للظمآن ، ويراه « ديودور الصقلى » فيهتف من أعماقه فيقول « إن فيضان النيل لظاهرة غريبة للذين يرونها رأى العين ، وغير معقولة لمن تصله عن طريق الأسماع فقط ، فبينما تبدأ كل أنهار العالم فى الهبوط الصيفى ، يبدأ النيل وحده فى الارتفاع .

وفى دهشة وحيرة وفخر يقول « ابن مماتى » ليس فى الدنيا نهر يجرى فى أشد ما يكون من الحر غير النيل ، وليس فى الدنيا نهر يزيد ويفيض على الترتيب إلا النيل ، وليس فى الدنيا نهر يجرى إذا نقصت مياه الدنيا إلا النيل .

وعن لفظ (نيل) الذى عُرف به النهر وتغنت به الأفئدة قديمًا وحديثًا ، فهو ذلك الاسم الذى أطلقه اليونانيون عليه ، وهو مشتق من الكلمة اليونانية « نيلوس » .

وعن اليونانيين انتقل الاسم إلى مختلف اللغات ، إلا أن هناك رأيًا يقول : إن النيل النهر كان يُدعى قبل ذلك بـــ « إيجبتوس » ثم أُطلق عليه النيل تخليدًا لذكرى

ملك يُسمى «نيلوس » اعتلى العرش بعد الملك « ريمفيس » (رمسيس الثالث) بزمن قليل ، وأن نيلوس هذا قام بحفر الترع والقنوات التى أفادت البلاد فأطلقوا لذلك اسمه على النهر الخالد .

وحب أبناء مصر للنيل ليس قاصراً على الرجال وحدهم دون النساء ، أو على الكبار دون الصغار .. فلو أننا سألنا أحد الصبية الصغار فقلنا له : « من هى مصر ؟ لقال : « مصر هى النيل ، والنيل هو مصر ، حافظوا عليه فهو عندى أعز من أبى وأمى، لأن عطاء أبى وأمى يتوقف بموتهما ، أما عطاء النيل فلا يتوقف لموت إنسان ، أو لجهل آخر لأنه يجرى بإذن اللّه .

وأنا كغيرى من أبناء هذا الوطن أحب النيل ، بل أعشقه ، ولا يمر يوم إلا وترانى جالسًا على ضفافه ، أو أنظر إلى صفحته الرقراقة من فوق الكوبرى .. والفرق بينى وبين غيرى هو : العفريت الأديب الذى يلازمنى كظلى ؛ لأنه يَكمُن بداخلى ، والذى كثيرًا ما يدفعنى دفعًا لأقذف بنفسى فى النيل رغم علمه أنى لا أجيد السباحة ، وإنه لن تمر إلا بضع ثوان وأكون مستقرًا فى قاع النيل بل حراك ، إلا أنى صراحة لا أنكر حب صديقى العفريت لى ، فهو يعلم أن الشهادة أخطاتنى مرة ومرات فى ميدان الوغى ، وذهبت إلى غيرى رغم حرصى الشديد على الفوز بها ، غير أنى حرمت من نعيمها الذى لا يبلى ، ورحيقها الذى لا يعادله رحيق ، وأغلب ظنى أن الصديق العفريت أراد أن أظفر بالشهادة وأخرج من الدنيا وأنا أحمل لقب « غريق النيل الشهيد» .

وحب النيل ليس وليد السد العالى ، أو توشكى ، بل هو وليد العصور القديمة فكلنا يعلم كم كان المصرى القديم يحب النيل ويقدسه ويتغنى بجماله وسخائه ، سواء أكان النيل نائمًا وقت التحاريق ، أو يقظًا وقت الفيضان .

إلا أن هذا الحب صار فاترًا فى عصر الأحفاد رغم جود النيل الذى تشهد عليه بحيرة ناصر ، ومفيض توشكى .. حتى ترانى أجزم أنه لم يبق من هذا الحب فى عصر الأحفاد إلا جلوس العرسان وهؤلاء الشباب من الجنسين الذين يتهامسون فى وداعة

على ضفافه لأنهم يعلمون أنه لاحب ولا عشق ولا حياة إلا على ضفاف النهر ، لذلك صار نهر النيل ساحراً فى الليل والنهار ، خالداً للأبد فى نظر العامة وكذلك الشعراء العرب الذى يجرى النيل فى شعرهم مجرى الدم فى عروق البشر .

فإذا استطاع أحدنا فى سهولة ويسر أن يحدد طول النهر ، ومتوسط عرضه ، والداخل إلى مجراه من ماء والفاقد وطاقاته السخية .. إلا أنه لن يستطيع حتى ولو كان ساحراً من سحرة فرعون ، أو يضرب بالودع أن يحدد عمر نهر النيل ، إلا أن البعض صوره على أنه شيخ هرم لأنه أبصر الحياة فوجد النيل يجرى برشاقته المعهودة هنا وهناك ، ورآه البعض الآخر شاباً يافعاً ما زال فى شرخ الشباب .

أما أنا فأرى النيل دائماً طفلاً جميلاً يحتاج منا إلى الرعاية والحب والشفقة رغم طوله الفارع ، وعمق غوره فى بعض النواحى ، آنذاك يكبر الطفل ، والمرض لا يعرف طريقاً إلى جسده ، والسعادة لا تغادر محياه ، أما قلبه فلا يضخ إلا دماً نقياً من التلوث، ويصبح فى النهاية شاباً قوياً غنياً بمائه أمام الأنهار الأخرى التى تفوقه فى عمقها ، والتى تتفوق عليه أيضاً فى عظيم مائها الذى يجرى بين ضلوعها .

لذا رأيت أن أُعد هذا الكتاب ليكون معلومة فى قصة ، وقصة ومعلومة فى كتاب ، كما رأيت أن تكون أحداث الكتاب عبارة عن حوار حميم بين النيل الذى قرر أن يغادر مصر إلى غيرها لأنه يئس من أهلها الذين دأبوا على أخذ نضارته ، وألقوا بمخلفاتهم فى بطنه ، فصار يبكى ويئن من أوجاعه وآلامه التى أضحت تزيد اليوم تلو الآخر .

وإنى لأبغى أن يُصيب قلمى الهدف فيحافظ أهل مصر على نقاوة ماء النيل ، وأن تقام المشروعات العملاقة على جسده فلا تُهدر مياهه كما يحدث الآن ليصير النيل بحق حابى الأمس ، ووردة اليوم التى تنثر شذاها فتغيب آنذاك سحب الدخان من على ضفافه ليحل محلها ضباب الخير المطير

المؤلف

الفصل الأول

حديث النيل

إشـــــاعــــة

صار الناس فى مـصر يَسمـعُون ـ فى الهزيع الأخـير من كل يوم ـ أنينًا مكتـومًا لإنسان يتـوجع ويتألم ، إلا أن أكثرهم أضـحوا عُميـانًا لا يرون ، وصماً لا يسمـعون لذلك الأنين الذى أصـبح يعلو مع الأيام ، ولا يعـرفون حـتى من هو صـاحبـه ، وهل يصدر من جـوف الأرض أم من أعالى الفضـاء .. لكن العُقـلاء ـ وما أكثـرهـم ـ قالوا والدمع يراود أجـفانهمُ : « الصـوت هو أنين نهر النيل الذى يُعـانى بعض الآلام التى حلت بجـسده ، وإنه لفـرط حبه لأبناء هذا الـوطن يكتم أوجاعـه وآلامه حتى الـهزيع الأخير من الليل ؛ ظنًا منه أن أهل مصـر فى ذلك الوقت ناموا نومًا له غطيط ، حينذاك لا يسمعه أحـدهم فيتألم لألمه ، أو يهرول ليزف الخـبر لغيره فينتشـر آنذاك الخبر أسرع من البرق والريح الغضوب .

انتشر خبر مرض النيل فى النواحى والأمصار بسرعة فائقة ، فحزن البعض حُزنًا شديدًا كـاد يودى بهم ، وسُرعـان ما خرج من بينهم الأوفـيّاء يحـملون الدواء وذهبوا مسرعين إلى الـنهر الخالد لإجراء الكشف الطبى عليـه ليبرأ من مرضـه المفاجئ .. أما البـعض الآخر فـحـزن حزنًا شـديدًا ، إلا أن حـزنهم لم يتـعد قلـوبهم ، ولم تنطق به شفاههم ، وسُرعان ما انطلقوا إلى أعمالهم وكأن شيئًا لم يحدث .

ومع مرور الساعـات خرج من بين الناس بعض نفر من الذين مـاتت ضمائرهم منذ نعومـة أظفارهم وقالوا ، وهم يتصنعـون الحزن وما هم بمحزونين ؛ لقـد مات نهر النيل ومـاتت مـعه كل الـقرى والنجـوع والكفـور .. وانطلقت صـيـحات الحـزن من الرجال ، وأخذت النساء تلطمن الخدود وتشققن الجيوب .. غير أن بعض محبى النيل وقفـوا وبصوت عالٍ قالوا للمـتجمـهرين : « ويحكم لا تصدقـوا هذا الزعم الباطل ، النيل لم يمت إنه حىٌ يرزق .

اشرأبت الأعناق تنظر ، وكفكفت العيـون الدمع المنهمر على الخدود ، وراحت الجموع الغفيرة تتنصت لتسمع ما يُطمـئن فؤادها ، وسُرعان ما خرج عفريت أسود فى صورة آدمى وقال : « لم يمت نهر النيل » ، بل قرر الرحيل هو وأبناؤه الفـروع ، وبنتاه

« بحيرة ناصر » والطفلة « توشكى » إلى مكانٍ مجهول لا يعلمه إلا هو .

انتشر خبر رحيل نهر النيل وأولاده كانتشار النار فى الهشيم .. حينذاك خرجت مصر عن بكرة أبيها وهى تحمل الورد والريحان ، وتحرك أهل مصر من أقصاها إلى أقصاها والحزن يعتصر قلوبهم ، ويعقد ألسنتهم عن الكلام ، وصارت الأجساد تتمايل ذات اليمن وذات الشمال كأعجاز نخل تتمايل من شدة الريح .. والناظر إلى الأهلين من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال ليجزم من الوهلة الأولى أنهم ذاهبون ليوم الحساب ، ولهول ما اقترفت أيديهم توقفت ألسنتهم فى أفواههم عن الحركة ، وفضلوا الصمت عن الكلام .

وصل أهل مصر إلى مكان النهر فوجدوه يرتدى بذلة بيضاء ، وكرافتة خضراء وحذاء أسود وبجواره عدة حقائب ، فأدركوا وقتئذ أن كلام العفريت الأسود ينطوى على الصحة ، فنظروا لبعضهم ووقفوا صفًا صفًا على شاطئ النهر ، وسُرعان ما ألقوا بالورد والريحان فى حضن النهر وأخذوا ينظرون إلى صفحته الرقراقة وهم يجهشون بالبكاء .

* * * * *

عتـــاب وحـــب

نظر نهر النيل إلى أبناء الوطن الوافدين إليه وأشاح بوجهه عنهم ، ثم نظر إليهم مرة أخـرى والسعـادة واضحة عـلى وجهه ، أمـا قلبه المنقـبض فبـدأ يتفتـح ويتراقص فتراقصت معه صفحة الماء ، وسُرعان ما قال لهم بصوت يمتزج بمعانى الحب والوفاء :

« فِيم قدومكم إلىَّ اليوم ، وفيَم البكاء ؟ » .

قالوا : « يا نهرنا بلغنا أنك سـوف تهجرنا مليًا إلى غيرنا بلا رجـعة فخرجنا من دورنا وخلفنا وراءنا الشيـوخ الركع يدعون لك بدوام الصحـة ، كما تركنا الحـيوانات الرتع تأكل من نـبت الأرض الذى نما على ضـفـافك ، وحـملنا أطفـالـنا وجـئنا إليك نستحلفك باللّه الذى أجرى فى مجراك الحياة بلا توقف أن تَعْدلَ عن هجرتك .

تساقطت دمـوع الفرح الذهبيـة على الخد الجـميل خد النهـر الذى قال فى ود : «كـيف تصور لـكم عقـولكم أنى أهجـركم مليًـا وأبحث لى عن وطن آخـر غيـر هذا الوطن الذى شـاهد مولد أولادى ، كـما شاهد شـبابى ؟ كـيف أرحلُ عن هذا الوطن الذى غمر حبه قلبى حتى زاد وفـاض على جانبى كما ترون ؟ أو تَعلمون أنى خالفت النظام الذى لم يخـالفه على الإطلاق زمـلائى من الأنهار الأخرى فـصرت أسـير من الجنوب إلى الشـمـال ، وتحملت غيـر كاره أن تشـيـر إلىَّ كل أنهار العـالم قـائلة فى سـخرية : « أجُـحا أنت أم نهـر النيل ؟ فلما قـلت لهن : ماذا تقـصدين أيتـها الأنهـار الصديقة بأنى جحا ؟!.

قالت : « عندما سأل جُحا عن أذنه أين هى ؟

أشار إلى أذنه البـعيدة وترك القريبة ، وأنـت فعلت كما فعل جُـحا من أجل أن تصل إلى المصريين وتعيش بينهم على أرضهم ... لكن أيها النهر الخالد عظيم الجود : إذا كانت البعرة تدل على البـعير ، والثمرة تدل على الشجرة ، فهـا هى حقائب السفر بجوارك تدل على رحيلك ، فبماذا تفسر لنا ذلك ؟

قال النيل معقبًا : « شعرت بدبيب العافية يخور ، وبأن الآلام المبرحة بدأت تسرى فى جسدى من مفرق شعرى عند المنبع إلى أخمص قدمى عند المصب ، فقررت أن أسافر للعلاج لأعود إليكم قويًا كما كنت فى الماضى .

هلل الأهلُون وقالوا فرحين : « إذًا يا نهرنا فلتلق حقائبك ونحن نكفيك الدواء ونسهر على رعايتك فى الليل والنهار دون كلل أو ملل .

قال النهر : « يُحمد لكم ـ أبناء مصر الوطن ـ هذا الشعور الطيب ، ولكن متى يمحو الشعور الطيب الخطر الداهم ؟ أنتم تعتلون ظهرى بقواربكم ، وبواخركم فى رحلاتكم النيلية ، وأنا فى غمرة السعادة ، وتسهرون حتى الساعات الأولى من كل صباح على ضفافى ، وأنا أبتهل إلى اللّه أن يديم عليكم سعادتكم ، ومع غمرة سعادتكم تتعمدون إيذائى بمخلفاتكم العضوية والكيماوية وغيرهما ، أنتم وتلك الدول الأخرى التى أجرى بإذن اللّه فى أراضيها ، وكأن السعادة كتبت عليكم أنتم فقط ، والشقاء والألم خُلقا من أجلى أنا نهر النيل الذى تدعون من خلال أحاديثكم حبكم له .

أغرورقت عيون الجموع الغفيرة بالدموع ، وتعالى نحيب الذين أصبحوا لا يتصورون العيش بدون النيل يومًا أو بعض يوم إلا أن أحد الرجال جاء من أقصى الصفوف وقال للنهر فى حب مستفسراً : « أيها النهر الخالد الذى قدسه القدماء وأحبه الأحفاد ، جئناك ونحن نحمل الورد والرياحين على صحف من ذهب وفضة ، واستحلفناك وما زلنا نستحلفك أن تبقى معنا لا تغادرنا قيد لحظة إلى الأبد .. أوَ تَدرى يا نيل أن من يسافر منا إلى وطنٍ غير هذا الوطن فإنه لابد أن يعود لأنه لا يهوى ماءًا غير مائك يروى ظمأه .

تنهد النيل فارتفع الماء وكأنه الأمواج ، وراح يخفى دمعة حزينة وقال للمتحدث بصوت خفيض تتموج فى مقاطعه الأشجان : « وماذا تقول فى الفلاتر التى تضعونها على الصّنابير فى المنازل ودور العمل ؟ وماذا تقول عن المياه المعدنية التى صارت السمة الغالبة عند الأغنياء والفقراء الذين يحبون التقليد بداعٍ وغير داع ؟ أتبحثون أنتم

عن دواعى الصحة وتتركون أحشائى تتلوى من عظيم ما تقذفونى به من نفايات ؟!

نكس الأهلُون رؤوسهم وعلامات الوجوم والحزن الشديدين تبدوان على الوجوه ، وبدأت الأقدام تتحرك ببطء شديد تاركة ضفاف النهر بعدما دب فى القلوب اليأس .. إلا أن النيل استوقفهم قائلاً لهم فى دهشة : « إلى أين أنتم ذاهبون؟ »

قال الأهلُون : « إلى الصحراء التى سوف يُخلفها رحيلك نحن ذاهبون لنعيش كما كنا نعيش قبل أن نراك ويصير بيننا وبينك كل هذا الحب .

قال نهر النيل فى لهفة وفزع : « لا تتركونى ، فما أنا بتارككم ، ولا أنتم بتاركى.

عاد الجميع وتعالت الصيحات الفرحة تهنئ بعضها بعضًا بأن النيل تراجع وعدل عن فكرة السفر .. فلما نظروا إلى النيل ليشكروه على حسن صنيعه ، ونظر هو إليهم يشكرهم على وقوفهم بجواره وحبهم إياه ، قال لهم النيل : « هلاّ تسمحوا لى أن اصطحبكم جميعًا فى رحلة على ظهرى لتشاهدوا منابعى وتشاهدوا أولادى الروافد ، فلما تهلل الجميع من الفرحة ، قال لهم النيل : « لكن هذا لن يتم قبل أن أقص عليكم حكاية شعب صار بينى وبينه حب كبير لا يستطيع نيل مثلى أن يصفه لكم ، إنهم أُناس أطلقوا علىَّ اسم « حابى » وقدسونى ، وعلموا أولادهم - وهم مازالوا فى المهد - أن حبى هو حب الحياة لأنى أنا الحياة ، فصرت أُغدق عليهم من نعم اللّه ، وصاروا هم يعطوننى الحب الذى جعلنى أفيض وأزيد بإذن اللّه .

❋ ❋ ❋ ❋ ❋

حـديث النيـــل

وقف الخلق ينظرون إلى النيل ، وحلقت الطيور من كل نوع فى الفضاء ، ولا أحد يدرى أجاءت هى الأخرى لتسمع حديث النيل ، أم اتخذت من نفسها جنوداً تحرس الفضاء فى يوم الوفاء ، يوم تلاقى أهل مصر بالنهر الخالد .

تحرك الماء علامة بدء حديث النيل ، إلا أن أحد الأهلين أراد أن يغتنم الفرصة ليُعبر فيها عن حبه للنيل فقال بلسان الحبيب : « يا جد أرضنا ، يا عميق الغور ، يا عظيم الجود ، هلاّ سمحت لى أن أخرج وأعلن للأشهاد من أبناء الوطن حبى لك ، فكم ضاق قلبى به لكثرته ، وحانت للسانى الفرصة اليوم ليزفه إليك ، فإن أذنت لى قلته بلا حرج ، وإلا توقفت عن الحديث من فورى ؟

اعتلى السرور وجه النيل فصار أكثر جمالاً ، وانفرجت أسارير الرجل المتحدث لما نظر فوجد النهر الخالد يومئ إليه بالحديث ، آنذاك اندفع لسان الرجل داخل فمه يقول : « يا نهرنا لك فى نفس الشعب المصرى مكان عال وغال ، فلا ينكر أحدنا ، ولا من سبقونا من سكان الأجداث أنك بحق صانع تاريخً مصر ، ومشيد حضارتها التليدة ، فأنت الذى خلعت على أرضها الخصب والنماء ، فصار الإنسان والطير بإذن اللّه فى نعمة ، وخرج الشعراء من حدائقك وبساتينك يقذفونك تارة بثمار الشعر عذبة الطعم كمائك ، وتارة أخرى بشهد النثر ، فلما سألتهم ليطمئن فؤادك : أوَ تحبوننى كل هذا الحب ؟ قالوا : فتحنا عيوننا عليك فرأيناك رقراقًا من الفضة المذابة ، وذهبًا براقًا منثوراً فى حقولنا قمحًا وقطنًا وشعيراً ، وعرفناك منعمًا يحيى الأنفس والثمرات .. فهلاّ تتحدث معنا الآن عن هذا الحب الذى جمعك وأهل مصر الفرعونية ، ومصر المسيحية ، ومصر الإسلامية ، فمن يدرى لعل يخرج من بين ظهرانينا اليوم أو غداً عالم ، عاشق ، مخلص فى لمة من الأوفياء فيصنعون المجد على ضفافك ، حينذاك يجرى الدم الرقراق فى عروقكً وعروقنا دون أن نفقد قطرة من سائل الحياة الفضى .

عم السكون ضفاف النهر ، وتطاولت الأعناق تنظر فى لهفة إلى النهر الذى بدأ الحديث إلى الأهلين فقال : فى البداية أحب أن أشهدكم أنى لم أجر فى أرض مصر بأذنى بل عدوت وأسرعت فى الخطو عندما أذن اللّه لى أذنًا قدريًا أن أجرى فى مصركم ، لذلك ترونى قد خالفت قانون الأنهار فصرت أعدو من الجنوب إلى الشمال بسرعة مذهلة ، غير متهيب من تلك العوائق والعراقيل التى تصادفنى كثيرًا وأنا فى طريقى إليكم ، فدائمًا ما أدفعها أمامى بقوة الشباب ، أو أعبُر من فوقها ، أو تحتها ، فأصبحت ذى قوة ، وصار شبابى محل أنظار الجميع ، وأصبح لا حديث للناس إلا عن سرعتى التى فاقت حساب الحاسبين ، وتجاوزت خيال المتخيلين .. ثمة شئ آخر أخالف فيه أصدقائى الأنهار وهو أنى أفيض فى الصيف ، أما هم فيفيضون فى الشتاء.

* * * * *

عروس النيل أسطورة أم حقيقة ؟

نظر النيل إلى أبناء مصر وقال : أُشهد حاضركم وغائبكم أن بداخلى ثمة كلمات شفيفة يفوح من بين جنباتها عبق الحق والسؤدد لأنها صادرة من قلب لا يعرف المواربة ، ولسان لا ينطق بالزيف لأنه من المدرسة المحمدية ، إنه حديث فاتح مصر القائد العربى الكبير : عمرو بن العاص إلى أمير المؤمنين : عمر بن الخطاب ، أوَ تحبون أن أعيده على أسماعكم الآن ؟

ظن أبناء مصر أن النيل يريد أن يحجب عنهم حديث عمرو ، فحزنوا ، إلا أن النهر بدد حزنهم حين قال : كتب عمرو إلى الفاروق عمر فقال « أعلم يا أمير المؤمنين أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكتنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نهر مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، يجرى بالزيادة والنقصان كجرى الشمس والقمر له أوان ، يدر حلابه ، ويكثر عجاجه ، وتعظم أمواجه ، فتفيض على الجانبين ، فلا يمكن التخلص من القرى بعضها إلى بعض إلا فى صفان المراكب ، وخفاف القوارب ، وزوارق كأنهن المخايل [١] ، أو ورق الأصايل [٢] فإذا تكامل فى زيادته نكص على عقبه كأول ما بدأ فى جريته وطما[٣] فى درته فعند ذلك تخرج ملة محقورة يحرثون بطون الأرض ، ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب لقيهم ما سعوا من كدهم ، فناله عنهم أناس بغير جدهم ، فإذا أشرق الزرع وأشرف سقاه الندى ، وغدا من تحته الثرى ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء فإذا هى عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هى ديباجة رقشاء ، فتبارك اللّه الخالق لما يشاء » [٤] .

---

(١) المخايل : السحب المنذرة بالمطر .

(٢) الورق : جمع الورقاء ، ولونها لون الرماد .

(٣) طما الماء : أى ارتفع وملأ النهر .

(٤) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة : عادل زعيتر ، الهيئة المصربة العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ١٩٩٧ ، ص ٤٤١ .

لما شاهد نهر النيل أن السعادة ترفرف كالطير من فوق وحول أبناء الشعب المصرى من صدق ما سمعوه قال لهم : « وحتى تدركوا أن حب مصر عند ابن العاص لم يكن عبارة عن أقوال تردد ، وأغنيات تنشد ، بل كان حب مصر عنده لا يزيد عن كونه عملاً يتوجه عمل ، أنه كتب إلى الفاروق عمر يطلب منه أن يأذن له فى أن يصرف الخراج لمدة ثلاث سنوات على تطهير الترع والمصارف المصرية من أجل تحسين الملاحة[١] .

رأى نهر النيل أن فتاة من بين الحضور تدفع ذويها بمنكبيها حتى تصل إليه فأدرك بفطانة النهر الذى عاش بين الناس أمدًا طويلاً أن لدى الفتاة سؤالاً ملحاً تريد أن تطرحة على مسامعه أمام الأهل والأحباب ، فلما نظر إليها وابتسم قالت : « لا أحسب أنى كنت سأطرح عليك هذا السؤال إلا عندما رأيتك تقص علينا خبر وصف مصر من خلالك كما جاء على لسان القائد العربى المسلم : عمرو بن العاص ، وسؤالى يدور عن عروس النيل ، هل هى حقيقة كما هو راسخ فى أذهان عامة الناس المحبين لك ، أم هى بدعة غلفت مع الأيام بأسطورة صدقها الناس ونسجوا حولها خيوطاً من الحقيقة ، وهى فى الأصل خيوط من وهم وسراب ؟

قال النيل وعلامات الجدية تبدو على وجهه : « يا أبناء مصر دمتم لى ، ودمت لكم ، قلت لكم فى بداية حديثى أنى لا أجرى بأمرى ، بل أجرى بإذن اللّه ، ولا يخالجنى الشك قيد أنملة أنكم تؤمنون بغير ذلك أنتم وأسلافكم ، فلما هتفوا وأشاروا وقالوا : اللهم نعم .

قال النيل معقبًا : « كيف بالذى يجرى بأمر اللّه أن يقبل رشوة متمثلة فى عروس جميلة تلقى فى جوفه كل عام ؟! .

صار الناس وكأن الطير على رؤوسهم والنهر يستكمل الحديث فيقول : «أوَلست أفيض لكم كل عام ويعلو منسوبى أمام ولدى السد العالى بلا رشوة ، ولا

---

(١) المحاسن الباهرة فى مصر والقاهرة ، لأبو المحاسن بن تغرى بردى ، الجزء الثانى ، ص ٧٢ .

عـروس ، قـالوا : اللهم نعم ، فـقـال : « ولم يقف الأمـر بالـظالمين عند هذا الحـد بل تجاوزوه .. فقد أشار « لودفيغ » إلى أسطورة زواج النهر من الأرض السمراء فى حفل وفائه ، وأن فرعون كان يحاول استعطافى بالهدايا ، واستمالتى بالسحر ليحملنى على الزيادة [١].

وإذا سلمنا أن كلام لودفيغ هو الحـقيقة وأنى أتزوج أرض مصـر السمراء وقت الفـيـضـان ، فلابد وأن نسـلم أيضًـا أن أبنائى ليـست الفـروع ، بل هى الزروع ، هذه واحدة ، والأخرى لماذا لم يشـر الأديب لودفيغ بخياله الحـصيف إلى أين أذهب وقت التـحاريق ؟ أأُطلق الأرض السـمراء وأظـل مكانى ، أم أهاجر إلى أوربا ، أم أفـضل الرحيل إلى إحدى الدول العربية لرفع شعار العروبة ، أيستطيع لودفيغ أن يقول لنا من هو زوج الصحراء المصرية ؟ أهو المطر ، أم البئر الصناعى ؟

ابتسم نهر النيل بعد عبوس وقال : « إن كلمة عروس النيل ليست اختراعًا ، بل هى كلمـة كـان المصـريون يرددونـهـا ويريدون منهـا » أرض مـصـر ، ولو قـدر الإله لأحدكم وسـأل أحد هؤلاء المصريين وقتـذاك لقال له : « الكلمة مـعناها أن النيل متى فاض دخل على أرض مصر كما يدخل الرجل على عروسه، وهو كما يبدو لنا جميعًا معنى مجازى ، أدى مع مرور الزمن إلى هذا الزعم الباطل .

يتحرك الـنيل فَيُـسمع لحركـته خرير حتى يبـدو للناظرين وكأن النيل يفكر ، أو يتذكر الأحداث .. إلا أن المقام لم يطل كثيرًا فسُرعان ما قال النهر : « أصل الأسطورة تبدأ من عند » ابن عـبد الحكم [٢] الذى أراد أن يسلك طريقًا لم يسلكه فـيه أحد من قبـل فكتب ويالـيته ما كتـب ، أو بالأخـرى نـسج بريشته لأول مرة فذكر قصـة (عروس النيل) ، وكيف منع عمرو بن العاص هذه العادة .. فأضحى ابن عبد الحكم بعد ذلك هو المرجع الأساسى لهذه القصة الهُلامية الخُرافية ، ومع مرور الأيام والسنين أصبح لها مؤيدون ومعارضون » .

---

(١) النيل فى الأدب الشعبى ، د. نعمات أحمد فؤاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ .

(٢) هو عبد الرحمن بن عـبد الحكم ، من أقدم مؤرخى مصر الإسلامـية ، أول من تعرض لذكر النيل فى مؤلفاته وكان ذلك فى كتابه الشهير (فتوح مصر وأخبارها) .

بعد ابتسامة للنهر تُعبر عن مقدار هذا الحب الذى بينه وبين الأهلين قال النيل : « رغم أن ابن عبد الحكم بأسطورته قد أوحى إلى بعض الأقلام أن تحذوا حذوه ، وتخطو خطواته فيما بعد .. إلا أن لسانه وقلمه نطقا بالحق ، حين قال القلم بإيعاز من ابن عبد الحكم : عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص : « نيل مصر سيد الأنهار ، سخر اللَّه له كل نهر بين المشرق والمغرب ، فإذا أراد اللَّه تعالى أن يجرى نيل مصر أمر كل نهر أن يمده ، فأمدته الأنهار ، وفجر اللَّه له الأرض عُيونًا ، فاذا انتهت جريته إلى ما أراد اللَّه أوحى اللّه إلى كل ماء أن يرجع إلى عنصره » [1].

خرج من بين الصفوف شاب وقال فى حماس وفخر : « وعبد اللَّه بن عمرو القائل أيضًا : « من أراد أن يذكر الفردوس ، أو ينظر إلى مثلها فى الدنيا فلينظر إلى أرض مصر حين تخضر زروعها وتنور ثمارها » [2] .

ولو عُدت إلى قصة « عروس النيل » من أولها لقلت : « زعموا أنه لما ولى عمرو بن العاص مصر أتاه أهلها من القبط فى شهر « بؤونة » وهو من أشهر الصيف القائظ وقالوا له : « إذا كان فى اثنتى عشرة ليلة تخلو من شهر بؤونة عمدنا إلى جارية بكر تعيش فى كنف والديها ، فقمنا فأرضينا أبويها وأخذناها ، وزيناها وجعلنا عليها من الحُلى والثياب أفضل ما يكون ، ثم ألقيناها فى النيل فيجرى » .

فقال لهم عمرو بن العاص بعدما شعر بالغصة : « إن هذا لا يكون فى الإسلام، إن الإسلام يهدم ما قبله .. فلما توقف النيل عن جريانه فى وقت التحاريق ، هموا بالجلاء ، فاستبقاهم عمرو الذى كتب إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يعلمه بالأمر فأرسل إليه الفاروق عمر ببطاقة وطلب منه أن يرميها فى النيل فور وصولها إليه » .

فلما قدم كتاب عمر إلى عمرو وفتحه ، فإذا هو مسطر فيه الآتى : من عبد اللَّه عمر أمير المؤمنين إلى نيل مصر ، أما بعد ، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر ، وإن كان اللَّه الواحد القهار هو الذى يجربك فنسأل اللَّه الواحد القهار أن يُجريك .. فإذا

---

(١) فتوح مصر وأخبارها . ابن عبد الحكم ، ص ١٤٩ .

(٢) المقريزى الخطط ص ١ ، ص ٢٧ .

بعمرو يُعلم قبط مصر بأمر الكتاب ، ثم ألقى بكتاب أمير المؤمنين فى النيل قبل يوم عيد الصليب [(١)] بيوم وهم يتهيأون للجلاء والخروج من مصر لأنه لا يقيم مصالحهم فيها إلا النيل .. فأصبحوا يوم عيد الصليب وقد أجراه اللّه ست عشرة ذراعًا فى ليلة واحدة ، وقطع تلك السنة القبيحة عند أهل مصر [(٢)] .

يتنهد النيل فتخرج من فيه زفرة ألم بعدها يقول : « إنه من المحقق أن الإحتفال بالنيل والدعاء له من أجل زيادته كانت تقع فيه أعمال خرافية كثيرة ، ولعلنى أجزم كشاهد على جل العصور أنها تخلفت من العصور القديمة ، لكن الأعمال الخرافية هذه لم يكن بها شئ مثل ذلك الجرم من التضحية بالعذراء ، فمن البهتان أن يتهم المسيحيون أنهم حافظوا على هذه العادة الذميمة والشنيعة التى لا تقرها البتة ملتهم ولا ديانتهم .

أخذ النيل ينظر إلى الأفق البعيد وكأنه يلملم حبات الماضى المتناثرة ، وسُرعان ما قال فى امتعاض : « من الظلم الجائر أن واحدًا « كبتلر » أو غيره يدور بخاطره أن مثل هذه العادة الشنيعة ربما كانت متبعة فى عهد مصر الفرعونية ، وأن يحاور ويناور بقلمه المسموم فى ثورة عنيفة ليدين ويتهم قبط مصر المسيحيين أنهم حافظوا على هذه العادة السيئة من بعد .

ولو نصبت من نفسى ـ أنا نهر النيل ـ قاضيًا عدلاً لأرد على اتهام بتلر لقلت بلسان صدوق : « ويح بتلر ، لو أن الفراعنة فعلوها وقاموا بقذف الضحية العروس البكر الجميلة فى جوفى لفعلها من بعدهم قبط مصر المسيحيون ، وامتدت إلى العهد الإسلامى .. ولكن شيئًا من هذا لم يحدث ، لأنه لا يعقل أن يقوم الفراعنة صناع المجد والحضارة ـ بشهادة دول العالم بأسره ـ بهذا العمل المتدنى الذى لا يقدم عليه إلا

---

(١) يوافق عيد الصليب الثامن والعشرين من شهر سبتمبر ، وهذا يعنى أن النهر توقف عن فيضانه فى الأشهر الثلاثة : بؤونة ، وأبيب ، ومسرى .

(٢) كتاب النجوم الزاهرة ، لأبو المحاسن بن تغرى بردى ، رواية الدكتور / محمد حسين هيكل ، النيل فى الأدب الشعبى للدكتورة / نعمات أحمد فؤاد ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

همج غيبت عقولهم وأطفأت نور أبصارهم (١) .

سكت النيل برهة وراح ينظر فى بشر إلى وجوه الحاضرين ، إلا أنه سُرعان ما قاطعه أحد الحضور فقال : « أيها القاضى النهر أنا مثلك لا أؤمن بهذه الأسطورة ، فكيف والمصريون القدماء كانوا يسجلون فى سجلات خاصة درجات علو وانخفاض الفيضان ، وهو الأمر الذى خلت منه سجلاتهم تمامًا ، كما خلا من ذكرها ما دونوه عن سنى المجاعة ... ولو أن هناك عروسًا بالفعل لوجب على الفراعنة القدماء ذكرها حين إشارتهم إلى ارتفاع الفيضان وانخفاضه ، أو من خلال تلك السنين العجاف ، أو أضعف الإيمان فى وصفهم بإسهاب للاحتفالات الدينية التى كانت تقام للنيل ، أو القصائد والأغانى والأناشيد التى لهجت بالنيل .

راق للنهر ما سمعه من المتحدث فقال معقبًا فى ود : « يا هذا ، لقد ذكرنى حديثك بقصة خرافية روجها المؤرخ الاغريقى « بلوتارك » تقول القصة : أن «أجبتوس» ملك مصر استلهم الوحى ليهديه السبيل نحو اتقاء كوارث نزلت بالبلاد ، فنصحه الوحى أن يضحى بابنته بأن يُلقيها فى النيل ، ففعل أجبتوس كما أشار عليه الوحى .. فلما تسرب إلى داخله الحزن الشديد لفراق ابنته ألقى بنفسه هو الآخر فى النهر فهلك كما هلكت ابنته .

وهذه الخرافة التى روجها بعض كتاب الاغريق واللاتين من بعد بلوتارك لم يرد لها ذكر فى الكتابات المصرية .. ولا أحسبنى أبالغ إذا قلت : إن وحى بلوتارك هذا ما هو إلا الشيطان المارد اللئيم ، وما الوحى إلا براء من افتراءات بلوتارك .

وخلاصة القول : إن الإنسانية كثيراً ما تؤمن بأساطير لا أصل لها فى الحياة ، وإنما زيفها وزينها خيال الكتاب وأرباب الفن .

(١) ذهب بتلر هذا المذهب ، فنفى قصة عروس النيل فى العهد المسيحى ، ولوح أن لهذه القصة أصلاً فى التاريخ .. فقد كان من عادة قبائل الهمج التى تعيش فى أقصى الجنوب السودانى أن تقوم فتلقى فى النهر بفتاة عذراء فى زينة الزفاف ، ويستطرد فى الحديث فيقول : ولعل عادة كهذه كانت متبعة فى بعض جهات الهمج ببلاد النوبة التى فتحها الإسلام فى أول أمره ، ولعل عادة التضحية بفتاة عذراء كانت متبعة فى مصر أيام الفراعنة ، كتاب النيل فى الأدب الشعبى ، د . نعمات أحمد فؤاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ ، ص ١٤٩ .



النيـــل عنـــد

الأجـــداد والأحفـــاد

اقترب شاب أسمر فى شرخ الشباب يرتدى جلبابًا أبيض من ضفاف النهر وقال فى استبشار سائلاً : «يا أبا سيابيل [1] يا بحر النيل ببشاشتك التى لا تفارق مُحياك وودك جعلت من المصريين ذوى أنس ، فترى هذا الشعب مدينًا للشمس بالقناعة ومرح الحياة ، وتراه مدينًا لك بروح النظام ٠

نظر الشاب بزهو مرة إلى الفضاء ، وأخرى إلى الحقول المترامية على ضفاف النهر ثم قال : « تلك هى قوة شمس مصر ، وذلك هو سخاؤك الموزع للحياة والذى يحركنا بإذن الله ٠٠ فهلاّ قصصت على مسامعنا الآن يا أبا السيابيل والقنوات والسدود كيف كان حب الأجداد لك ، وكيف أصبح فى زمن الأحفاد ؟ ٠

النيل عند الفراعنة

أخذ النيل يدور بعينيه فى وجوه الحاضرين ، فلما وجد الرقاب قد تطاولت ، والعيون قد اتسعت حدقاتها وراحت تنظر ، والأذان أخذت تتنصت وراحت تتسمع ، قال فى غبطة : « لقد بلغ من إيمان المصريين القدماء وفرط حبهم لى كل مبلغ ، فكانوا يحنطون من يغرق فى بطنى ويدفنونه مكفنًا بالزهر إعزازًا للغريق ، وكأنما الغرق فى جوفى شرف للغريق يجعله يرتفع فوق مرتبة الإنسان » [2] ٠

وكما هو معلوم عندى وعندكم أبناء الأجداد العظماء أن الموت عند أجدادكم الفراعنة كان يُعد نقلة من حياة إلى أخرى ينعمون فيها بكل ما منحهم النيل من نعم ٠٠ ورسخت هذه العقيدة فى نفوسهم رسوخ الأوتاد ، فراحوا ينقشون على جدران مقابرهم صور العيش فى الوادى الذى صنعه مائى من مناظر الزرع والحصاد ، والصيد والزهوروالعطور وكل ما تفننت فى خلقه يوم زينت بإذن الله القادر لهم ولكم من بعدهم مصر ، حتى الصحراء على جانبى رسمها أجدادكم القدماء لتكمتل لهم صورة « مصر عروس النيل»٠

---

(١) السيابيل : هى الجب الطويل ، وتعنى هنا خير النيل العميم .

(٢) النيل حياة نهر : إميل لودفيغ ، وكذلك فى النيل فى الأدب الشعبى للدكتورة نعمات فؤاد .

وصار حبى يسرى فى عروقهم ، فأضحوا لايفرقون بين دمائهم ومائى ، فعز على أكثرهم إذا ماحضرهم الموت أن يفارقونى ، وتخرج أرواحهم من أجسادهم إذا جاء أجلهم ، فصورت لهم الأمانى وقتئذ أن فى العالم الآخر نيلاً مثلى ٠

سكت النيل هنيهة ثم قال فى نشوة : « قال اخناتون الفيلسوف الذى دعا إلى التوحيد مبتهلا إلى الله : أنت الذى خلقت نيلاً فى ذلك العالم الآخر ، وأنت الذى يأتى به عندما يشاء لتبقى على الناس ، وذلك لأنك أنت الذى خلقتهم لأجل نفسك ٠٠ ما أجمل أعمالك يارب الأبدية ، فالنيل الذى فى السماء (خلقته) للأجانب ولكل حيوانات الصحراء التى تسعى على الأقدام ، أما النيل (الحقيقى) فانه ينبع من العالم الآخر لأجل مصر [1] ٠

ولم يتوقف حب المصريين القدماء لنهرهم عند هذا الحد ، بل تجاوز حبهم كل الحدود حتى ترى الفلاح فى المعبد يسمع ابتهال الكاهن إلى النيل بنشيد بالغ فى القدم، كتب على جدر طيبة هذا النشيد : « السلام عليك أيها النيل الذى يخرج من الأرض ليغذى مصر ، والذى يخرج من الظلمات إلى النور ليشاد بوروده ، أنت تسقى الحقول ، وقد خلقك رع لتطعم القطاع ، أنت تروى حتى الصحراء البعيدة من كل ماء ، مادام الطل هو الذى ينزل من السماء ، وإذا ما كان النيل مكسالاً سدت الأنوف وهزل الناس وزالت القرابين وماتت الملايين ، وإذا ما ارتفع النيل كانت الأرض فى سرور وكانت المعد فى حبور ، وضحكت الظهور ، وابستمت الثغور[2]٠

« والنيل هو الذى ينبت الشجر وينتج السفن لتعذر صنعها من الحجارة ، من ذا الذى يجرؤ أن يشبهك بالبحر الذى لا يخرج حبًا أيها النيل الكريم الذى يروى المروج ويهب القوة إلى الناس ؟٠

« وإذا ما جاء فيضانك ذبحنا بقرًا وأوزًا واحتبلنا [3]وعولاً فى الصحراء لنرد

---

(١) تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ص ٤١٩ .

(٢) نفس المرجع السابق .

(٣) احتبل الصيد : أخذه بالحبالة .

إليك الخير الذى تُنعم به علينا ، ولنتوسل إلى الآلهة ولنخشى القدرة التى يبديها سيد الدنيا ، أنتَ الذى يجعل الضفاف خضراء ، أنت الذى يُقوت الناس بفضل قطاعه ، أنتَ الذى يُقوت القطاع بفضل المرعى ، أيها النيل : أنَت تُخضر : أيها النيل أنتَ تُخضر ! ٠

تسقط دمعة ساخنةعلى مُحيا النهر الذى راح ينظر إلى وجوه أبناء مصر وكأنه يستقرئ حبهم له ، إلا أن النيل سُرعان ما بكى فتحرك ماؤه عشوائيًا على جانبيه ، واحتبس صوته ، ففزع الناس وظنوا أن النهر الحبيب أصابته الغيبوبة ، وما هى الغيبوبة ، بل هو الميزان الذى وضع فيه النيل الأجداد ، ثم الأحفاد ، فلما اختل الميزان بوضع الأحفاد بعد آلاف السنين ، وصار حبهم له فاترًا تدنسه الأفاعيل الممتزجة بالداء بكى النهر لعل عبراته تنزل بردًا وسلامًا فتذهب بآلامه لتبقى أفراحه ٠

أو لعله تذكر قسم ملوك الفراعنة عندما كان يقف الواحد منهم أمام شعبه ويقول فى قسمه الطويل بجد حتى ينفى عن نفسه العار المتمثل فى الاعتداء على ماء النهر ، (ولم أدنس ماء النيل) ، يوم كان النيل « حعبى » إلهًا معبودًا من غيرمعبد خاص ، أو كهنة يقومون على خدمته ٠٠ ومن يدرى لعله تذكر ذلك النشيد أو تلك القصة ، نعم تذكر ذلك النشيد الذى كان المصريون القدماء يتغنون به للنيل فى غير موعد فيقولون فى بعض مقاطعه :

إنه هو الذى يصنع الشعير ويخلق القمح

وبذلك تتمكن المعابد من إقامة احتفالاتها

إذا ما تباطأ تنسد الخياشيم ويفتقر كل

الناس وتنقص أقوات الآلهة ويهلك ملايين الناس

وإذاما قسا تصبح البلاد كلها فى فزع

ويندب الكبار والصغار

عندما يفيض تصبح البلاد فى فرحة ، وكل إنسان

فى سرور ويبدأ كل فم يضحك ويظهر كل سن

أنت تطفح فتسقى الحقول وتمد الناس بالقوة

وهو الذى يُسعد الإنسان ويجعله يُحب أخاه

وهو لا يُفرق بين شخص وآخر وليست له حدود يقف عندها

يبدأ الناس فى العزف لك على العود ويغنون لك

بأيديهم ويفرح شبابك وأطفالك

بقدومك ويرسلون الوفود إليك

إنه هو الذى يأتى بأشياء فخمة وتزدان

به الأرض .. وهو الذى يجعل السفن

تكثر قبل أن تكثر الناس ، وهو الذى

يحن قلوب من لهم أطفال

أنت مزدهر أيها النيل ، فالنيل هو الذى يجعل

الإنسان يحيا من خير ما شيته وتعيش

ما شيته على المراعى ، أنت مزدهر أيها النيل ، أنت مزدهر [1]

ومن يدرى لعل النيل تذكر قصة يوسف الأسطورية التى تقول: « لا يزال الفلاحون يقصون أسطورة يوسف ، فيذكرون أن رجال البلاط سئموا منه كما يسأمون من كل وزير يحتفظ بالسلطان زمنًا طويلاً ، فودوا أن يتخلصوا منه فأخذوا ينتقصونه أمام فرعون ويقولون له : « يا فرعون العظيم ، لقد شاب يوسف كثيرًا ، وقل ذكاؤه وزال جماله وضعف رأسه » ، غير أن فرعون الذى لم ينس ما تم على يد يوسف من عمل مُعلم ، أراد أن يريهم أنه لا يزال عند يوسف من قدرة سحرية عظيمة فقال لهم : «والآن ، اثبتوا لى ذلك ، والآن اسألوه أن يقوم بعمل عظيم لا يقدر على إنجازه « فقال خصوم يوسف » .

« مُرة أن يستنزف ماء النيل من الأراضى المستغدرة تحت البحيرة وأن يجفف هذه الأرض وأن يسقيها فيكون لك بذلك ولاية جديدة ودخل جديد » .

ويظهر فرعون إشارة القبول ويدعو يوسف ويقول له : « يوسف ! لى ابنة

(١) تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى، المجلد الأول ، مكتبة النهضة المصرية ، ص٤١٤ ، ٤١٥ .

مفضلة أريد أن أحسن جهازها ، ولكن ليس عندنا أراضى ، أفتقدر أن تحول البقعة المستغدرة هنالك إلى ولاية؟هى حسنة الموقع ، وهى غير بعيدة من عاصمتى ، وهى فى وسط الصحارى ، وستكون ابنتى مستقلة فيها »٠

وهنالك يسأل يوسف : « ومتى تريد ذلك يا فرعون العظيم ؟ ولتعلم أن ذلك لن يكون إلا بعون الّله » ؟ ؟ ٠

وهنالك يجيب فرعون قائلاً ككل صاحب سلطان : « بما يمكن من السرعة ».

وهنالك يأمر الّله يوسف بأن ينشئ ثلاث قنوات ، فتكون إحداها من مصر العليا، وتكون الثانية من الشرق ، والثالثة من الغرب ، فتستنزف الأراضى بهذه القنوات ، ويغرس فيها يوسف أشجارًا وألفاً من الأثل ، ويدخل النيل فى وقت الفيضان إحدى القنوات ويسقى البلد المجفف ويخرج من القناة الأخرى ، ويتم كل شئ فى سبعين يومًا ، ويقول فرعون لرجال بلاطه حينئذ : « هذا هو الذى عمله يوسف الشائب الضعيف الرأى ، وهذا ما لا تقدرون على صنعه فى ألف يوم ! [1] .

وما فتئ ذلك البلد يُسمى بلد ألف يوم ، أو الفيوم !!

---

(١) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة : عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مكتبة الأسرة ص . ٥٩٣ ، ٥٩٤ .

اقتربت امرأة جميلة فى مقتبل العمر من ضفاف نهر النيل وقالت لــه فــى رقة وعذوبة يغلفهما استحياء من شـربن من خمر النيل المضمخ بالشهد : « يا أبا الحقول ، يا عنبر الفـؤاد ، فـيمَ البكاء وكل هذا الحزن ، ونحن الذين لا نشعر بالسـعادة والنماء إلا على ضفافك ، أو بالنظر إلى مُحياك « ؟

كـفكف النيل دمعـه وقال فى اسـتبـشار : « لا عـليكم أحفـاد العظماء ، فلقـد تذكرت الماضى وأهله ، والحاضر وأهله ، فبكيت ، فلما نظرت أمامى ورأيت المستقبل مشرقـاً بإذن اللّه تبدد حزنى وذهب ألمى وأدركت أن الأحـفاد عقدوا العـزم أن يسيروا حذو الأجداد فسررت لذلك أيما سرور ٠

فلمـا سألوه فـقالوا : « لعـلنا نجزم أن مـا أبكاك هى الغـصة التى تمخض عنهـا الحاضر ولم تقو على مواجهتها فأصابك الإعياء الشديد والدوار ، أهو كذلك يا نهرنا الحبيب ؟

قال النيل مـعقبًا فى فـرحة : « يا مرحى بكم ، فـقد وضعتم أيديكم على جـسد الداء ، أما رأس الداء فهم هؤلاء الذين عـصبوا عيونهم فصاروا يُحـبون المال أكثر من الماء ، ولوأنهم أبصروا للحظات لأدركـوا من فورهم أن الإنسان في مقـدوره أن يحيا عمره كله بدون مال ، لكنه لا يستطيع العيش عدة أيام ، بل عدة ساعات بدون ماء » ٠

خرج من بين الحاضرين غُـلام تبدوعلامات النجابة والذكاء على ملامـحه فقال للنهر : «يا قرة العين ومـتمم الصلاة رفقًا بالصغـار ، هلاّ نزلت قليـــلاً مـــن عليائك ، وأفصحت عما بداخلك من أجل الغلمان » ؟

ضحك نهر النيل وقال للغلام السائـل فى حنان وضباب الحزن يخـرج من فيه : « يا غلام إنما أقصـد الذين يملكون البواخر النيليـة العملاقة التى تمخـر عبابى ٠٠ إنهم جميعًا يتفاخرون بـجوارى ، ويعلنون صراحة فى السر والعلن أن جوارى هو الجوهرة الثمينة ـ لا ـ بل الدجاجة التى تبـيض لهم ذهبًا ، وأقسم أنى أسعد بما يُعلنون ، ولكنى

أسـائل نفـسى لماذا دأب هؤلاء البـشر على الأخـذ دون العطاء ؟ ! نعم أخـذوا حـبى وعُبـابى ، ومازلوا ، ومنعـونى حبـهم وصاروا بين الناس يتـشدقـون أنهم أبناء النيل واهب الحياة ٠٠ وأُشهدكم أنى حزين من أجـلكم حتى تتخلوا عن أنانيتكم ، وتعلموا عن يقين أن حـــب النيل ليـــس أقـوالاً تردد ، وأغـنيـات تُنشـد ، بـل هو عُـمل يُجدى ، وعطاء يُثرى » ٠

يتأوه النهر وبعد تنهيده يقول : « لابد أن أفصح لكم عن الأسباب التى أدت إلى زيادة المرض فى جسـدى ، فكيف أحجب عنكم حقـيقة مـرضى وأنا الذى أجرى فى عروقكم ٠٠ يا أبـناء مصر أحـباء النيل : أخـشى أن أكون السبب فـى تصدير المرض إليكم ، فأصبح بدلاً من أن أمدكم بالحياة ، أمدكم بالسقم ٠

التمعـت عيون الجموع الغـفيرة بالدمع وهى تنظر إلى النيل وهو يـقول بصوت أشبه بالأنين : « كمية المخلفات والملوثات الصناعية التى تلقى فى بطنى تفوق حساب الحاسبين ، وتتجاوز خيال المتخيلين [١] ، وأنـه قد تم فحص عينات صرف لعديد من المصانع جنوب حلوان وهى مـصانع تصرف مخلفـاتها فى مياه النيل ، فـجاءت نتائج الفحوص تقول : إن محتوى هذه المخلفات من الأملاح ، والبكتريا الضارة توجد فـى غـالبـية الأمـلاح مـثل : الزرنيـــخ ، والزئبـــق ، والرصـاص ، والكروم ، والنيكل ، والكوبالت ، والنحاس ، والحـديد ٠٠٠ وتبين أن عنصر الزرنيخ يوجـد بنسبة تـتعدى النسبة المسموح بها عالميا [٢] ٠٠

يصـمت النيل هـنيـهة ثـم يقـول مـرة أخـرى : « ناهيكم عن غـابة العـوامـات والمشاتـــــل والنوادى الخاصة ، وأسـوار النقابـات ، والتعديات التى تستمر كل يوم بلا توقف »٠

---

(١) تقـدر كمـية المخلفـات والملوثات التى تلقى فى النيل بحـوالى ٢٦٥ مليـون متـر مكعب من الملوثات الصناعية .

(٢) وجد أن عنصر الزرنيخ يوجد بنسبة تتراوح بين ٣ و ٤٥١ جزء ، تحقيق لشيرين نصر ، العدد الثالث ، مجلة البيئة ، سبتمبر ١٩٩٧ .

يقاطع النهر عجوزٌ يقـول فى هدوء بصوت أجش : نعم الوضـع كما ذكـرت . يا نهـرنا مـترد ، إلا أن هناك شـعـاعات من نور ، وأخـرى من أمل تتـمـثل فى تلـك المحاولات الحـثيثـة التى تتم من جهات مـتعددة لوقف هذه المهـازل ، ولعلنى أجزم أن أهمها « مشروع تطوير وحماية نهر النيل » (١) .

فـى فرحة يتـقدم أحد الشباب ويقـول للنيل وكل الحـضور : يا أبا الروضـة يا مسك العروق ، أعمل فى هذا المشروع الذى يتكون من أربعة مـحاور رئيسية أهمها يتعلق بتحسين جودة ونوعية المياه من خلال انشاء شبكة ضخمة تتكون من ٣٥٠ نقطة رصد للتلوث على طول مجراك من أسوان إلى القاهرة والقيام بتحليلها » (٢) .

تقترب امرأة عجوز من الشاب المتحدث وتسأله فى عجلة وصدرها يعلو ويهبط من شدة الخـوف فتقـول : « أستـحلفك أن تصدقنا القـول ، بمـاذا تشيـر شبكات الصرف والرى المتـمثلة فى عشـرات نقط الصرف الصناعى ، وعشـرات نقط الصرف الزراعى على مجرى الحبيب النيل » ؟

يعلو البـشر وجه الـشاب المتحـدث الذى يقول بثـقة : « إنى اطمـئن الأهلين أن هناك مـعمل مركـزى ضخم أنشئ ليـكون مرجعًـا أساسـيًا لتحـليل الميـاه ، ومعرفة نوعيتها » .

ينظر النيل النهر إلى أبناء مصر وكأنه يستحثهم على الحديث الذى صار يطرب قلبه ، فلما رأته إحدى الفتيـات على هذه الحال تقدمت منه وقالت فى غبطة : « فلتهنأ يا نهرنا ، وليتـبدد حزنك ، فلقد أفتـتحت محطة عملاقة تُعـد الأولى من نوعها ، والغرض من وجـودها هو تجميع مخلفـات المراكب النيليـة ، وهذه المحطة تم بناؤها على الكورنيش بمصر القديمة » (٣).

---

(١) المشروع المشار إليه بعاليه قامت بتنفيذه وزارة الأشغـال العامة والموارد المائية بالتعاون مع وكالة التنمية الدولية الكندية بمنحة لا ترد مقدارها ١٣ مليون جنيه .

(٢) تحقـيق لشيرين نصـر ، العدد الثالث ، مـجلة البيئـة ، سبتـمبر ١٩٩٧ ، جـمعية مـؤسسات الأعـمال للحفاظ على البيئة ، صـ ١٠، ١١ .

(٣) هذه المحطة المشار إليها بعاليه نفذتها شركة المقاولون العرب .

يدارى النهر دمعة حزينة كادت أن تحرق محياه لشدة سخونتها ، وسرعان ما قال مستفسراً بصوت خفيض : « يحمد لكم أحفاد العظماء ما تفعلونه من أجل أن أبرأ من آثام الجهلاء ٠

يكف النيل عن الكلام ويرفع هامته إلى أعلى ، ثم ينظر ذات اليمين ، وذات الشمال ، وبعد تفكير عميق يقول : « أوَ تظنون أحبائى أبناء مصر أن هذه المشروعات سوف تنجح فى الحد من التلوث الذى يفتك بمعدتى ، وأحشائى كما تأملون ؟ ! ٠٠

تنعقد الألسنة فى الأفواه ، ويعم السكون المكان ، إلا أنه سرعان ما تقدم أحد الشباب موفور الحب للنيل وقال فى حماس شديد : « يا نهر النيل يا باعث الحياة والدفء والحنان أنا لا أدافع عن الأهلين ، ولن أخادعك وأخادع نفسى لذلك أقول بلسان صدوق لأسمعك وأسمع الجموع الغفيرة : « إن هذه المشروعات التى شيدت من أجل أن يصفو ماؤك ما زالت هزيلة إذا ما قيست بهذا السيل من الملوثات الذى يلقى بصفة دورية فى جوفك ، فصرت تئن من أوجاعك فى جوف الليل والناس نيام » .

يسكت الشاب قليلاً ثم يقول مرة أخرى فى غصص: « يا نهرنا لعلنى أجزم أن السبب الرئيسى وراء مرضك العضال أننا سمحنا لهذا الكم الهائل من الصرف الصناعى والصرف الزراعى المخلوط بالصرف الصحى لأنه نتاج المناطق العشوائية أن يستقر فى قاعك ، وأنْ الحاجة ماسة لأن نوقف هذا العبث الذى صار يُصيبنا فى مقتل ، أو ننظم الصرف ، وهو أقل تقدير وإن كانت العقول أيضا ترفضه.

قاطعت امرأة فى مقتبل العمر الشاب المتحدث ، وقالت للنهر فى حب : «أود أن ألفت نظر الحبيب النهر إلى أن كل طوائف الشعب عاقدة العزم على أن يطهروا جوفك ، وأن المخلصين الشرفاء من علماء ومتخصصين وصانعى قرار أضحوا لا يشغلهم فى الليل ولا فى النهار إلا جمالك ، ونقاء ماؤك ٠٠آنذاك قاطعها النيل

النهر وسألها فى عجلة وهو يشير بسبابته قائلاً : « وهولاء الآخرون ماذا أنتم فاعلون معهم حتى لا يهدموا ما تشيدونه بالجهد والفكر والمال « ؟

قالت المرأة معقبة : « يا أبا الحقول وورد البساتين الحور ، هون عليك ، لابد أن يخرج من بين ظهرانى العقلاء خبثاء جاحدون نعم اللّه عليهم ، نراهم جميعا يقذفون نعم اللّه أرضًا غير مبالين أنها النعم ، لذلك علينا أن نعى أ ن الزمان سوف يقذف بهؤلاء الخبثاء الجهلاء إلى أن تقوم الساعة ، وعلينا أن نحترس منهم ، ونفوت عليهم الفرصة تلو الأخرى ، وأن نضرب على أيديهم بشدة حتى ندميها إن كنا فاعلين •• وأشهدكم أنهم لن يزيدوا عن كونهم أحفاد الأقزام الذين راحوا يسفهون الحق ، ويسعون جاهدين لأن يلبسوه ثوب الباطل ، فاذا بهم ينسجون حول الأنبياء الأباطيل والأكاذيب ، وسرعان ما ذهبوا يمطرون أنبياء ا للّه حصوات الباطل وهم يعلمون علم اليقين أنهم الأصفياء الأخيار » .

والسؤال الآن أوجهه إليك أيها النهر الخالد : لو أن الأمر اقتصر على هؤلاء الخبثاء الجاحدين أكنا خرجنا نحن بنى البشر من غيابات الجب ؟ أكنا انتقلنا من الجدب إلى النماء ، من الصحراء إلى الجنان ».

تتطاول الرقاب تنظر إلى المرأة المتحدثة ، ويبتسم النيل النهر الذى راح ينظر إلى المرأة وقال لها فى اعجاب : « ويح المرأة ، ماذا تقصد » .

المرأة : « أقصد أن الذين يحبونك ويبغون طهرك ، ويسعون لينثروا من حولك الورد والفل هم الغالبية العظمى من الأهلين ، وأن الخبثاء الجاحدين هم القلة التى حادت عن الطريق القويم ، وهم أيضًا الذين تُسن القوانين من أجل عبثهم الدامى » •

يقول النيل فى غصة : « أخشى ما أخشاه هذه القلة التى لاتستطيع التمييز بين الأبيض والأسود ، هؤلاء الذين أطلق عليهم فى كل أحاديثى فقراء العقول ، أغنياء الجيوب •• سكت النيل هنيهة ثم قال مرة أخرى : « أوَ تظنون أبناء مصر أن قانون البيئة الذى يحصر مخالفة تلويث النهر ، والاعتداء عليه بالغرامة هو العلاج

الــــرادع الذى أستطيـــع من خلالــه أن أســـترد عــافيــتى التى بدأت بالفعل تضــعف وتخور »[1] ؟ !

يتهلل وجــــه أحد الشبــاب من البشر ، وسرعــان ما يتقدم من النهــر وينظر إليه ويقول : « سلمك اللّه يا نهرنا من كل سوء ، فقد حدد القانون[2] ، المواصفات التى يجب أن تكون عليـها هذه المخلفات ، وطرق مـعالجتـها قبل صـرفها فى النهـر ، منها مثـلاً: أن تكون درجة الحرارة ٣٥ درجـة مئوية ، وأن تكون خـالية من المعـادن الثـقيلة مـثل : الزئبق والرصـاص والزرنيخ والحـديد والزنك ، اللـهم إلا من النسب المعلومـة التى لا يجب تخطيها فى كل الحالات » .

فى ود يقـول النهـر ناصـحاً : « يا أحـفـاد الفـراعنة الذين نسـجوا حـاضـرهم ومسـتقبـلهم فلتعلموا أن مـشكله تلويث مجـراى تكمن فى نقص الوعى البـيئى بين المواطنين ، فالوعى البيئى المرئى والمقروء أهــم ، بل يأتى فى المقدمة قبل سن القوانين ، أتدرون لماذا ؟ ٠٠ لأن القانون يقف عاجزاً بدون بث الوعى ، ولأن العـقول كالمدرسة لا تستقيم بغير مُعلم وكتاب » .

تقدم من النهـر رجل اعتلى رأسـه الشيب ، وتبدو على مـلامحه الجـدية والحزم وقال : « أيها المارد الإفريقى الحـر جئناك لنمسح دمعة ، ونزرع بسمــة ، جئناك لنمحو الصفـحة السـوداء ونجعلهـا طُعمة للنـار ، ونسطر صفحـة المجد كـما سطرها ببـراعة ومهـارة من قبل الأجـداد عندما تخلوا عن الثـرثرة ، وأقبلوا على العـمل إقبـال الهيم علـــى الماء ، فهلاّ كملت لنا الحكاية » .

سار النيل عدة خطوات ثم توقف فتوقف الماء عن الحركة حين قــــال : «ودانت مـصر بالمسيحـية ، واعـتنقت الإسلام ولكـن ظل إجلال المصـريين للنيل موفـوراً فى

---

(١) قانون البيئة رقم (٤) لسنة ١٩٩٤ يحصر المخـالفة بالغرامة التى تتراوح بين ٥٠٠ إلى ٢٠ ألف جنيه ، وهو أيضًا الذى ألغى مبدأ الحبس الذى نص عليه القانون رقم (٤٨) لسنة ١٩٨٢ .

(٢) القانون رقم ٤٨ لسنة ١٩٨٢ هو القانون الخاص بحماية نهر النيل والمجارى المائية .

قلوبهم ، كما ظهر فى وصفهم إياى ـ مسيحيين ومسلمين ـ بـ (المبارك) » .

ووصل حب العرب لى الـذى فاق حسـاب الحاسبين ، وتجـاوز خيال المتـخيلين أنهم حين رأونى أنساب ذات اليمين ، وذات الشمال ، لم يلبثوا أن تصورونى نابعاً من الجنة ، وأى جنة ؟ جنة طرقاتها بما يحفها من جبال وأشجار من ذهب وفضة ٠

هكذا صـورت لهم أخـيلتـهم وأوهامـهم ٠٠ وزاد خـيـالهم وسـحـرهم أنهم تخـيلونى فـــى نشـوة أخـرى أنحدر إلى الدنـيا من تحت سـدرة المنتـهى ، أو من تحت صخرة بيت المقدس ٠

أما أصدقائى الفلاحـون صناع المجد الذين أكن لهم أنا وكل مخلوقـــات اللّه من إنسان وطيـر كل الاحترام والتـقدير فكانوا يرون الطين العـالق بمائى نعمـة تقتنى ، وشـرابا يُحتسى ، ومنفعة تبتغى ٠٠ وإذا جاء وقت الاحتضار أحدهم ينسى الدنيا بمـــا جمعت ، وينسى دنياه الخاصة بما وعت ، وسُرعـان ما يذكر أهله النيل فيذهب أسفهم عليه ، وسُرعان ما يأتون لمريضهم جرعة أخيرة من مائى الحى [1] ٠

وكانت الفلاحة قديمًا إذا شعـرت بآلام المخاض ، فلا تُقعدها الآلام عن السعى إلى النيل الذى تحـبه لتنال قـبضة من الحـمأ (الطمى) وتبـتلعـــها أثناء الولادة لـتهنأ بوضع سعيد .

وهؤلاء أخـوانكم المسيـحيـون يُعبـرون بوفاء عـظيم عن مقـدار حبـهم لـــى ، فـــهاهـم يرددون فى صلاتهم هذا الدعاء : « تـكرم يارب وبارك مياه النهـر فـــى هذه السنة ، وأجـعله بفـضلك يصل إلى الارتفـاع الموافق ، ومـتع وجـه الأرض بأن تكون حقولنا مروية وغلالها متضاعفة » .

سكت النيل هنـيهـةثم قـال فى فـخـر : « أوَ تعلمـون أبناء مـصر الأوفـيـاء أن الكـــاتب الألمانى « لو دفيغ » سـأل ذات يوم فلاحاً مصـريًا مُر ملاً [2] عـما إذا كـان

---

(١) النيـــل فى الأدب الشعبى ، د . نعمـات أحمـــد فـؤاد ، الهيـئة المصرية العـامة للكتاب ، ١٩٧٣ ، صـ١١ .

(٢) مرملاً : أى فقيراً .

يعتـقد أن الإنجليـز يكيدون لمصر فـيحبسـون عنهـا ماء النيل ، فأجـاب الرجل الطيب المسالم فقـال فى ابتسامة مـشيراً إلى السماء : « عـبثاً يحاولون أن يسلبـونا النيل ، لقد وهبنا اللّه النهر يجرى حتى يبلغ حقل الفقير فيرويه »[1].

شاهد النيل من بعـيد جندولاً وسمع زغـاريد فتراقص من الفرح وقـال : « لقد كنت ومازالت مسرحاً لأعيادكم معـشر المصريين تضعون على ظهرى كل ذات شراع تتـهادى على صفـحة مائى الفضيـة ليذوب خرير مائى فى نغـمات الناى الذى يبعث فيـها عازفوها شجى النغم » ٠

نظر النيل فوجد البـشر يعتلى الوجوه فقال فى تؤدة : « كـتب جغرافى القـــرن الثامن عشر فقال :

ألا مـا أحق تربة مـصـر بأن تخلط بـالرمل وإلاجـاوزت حـد الغنى إلى درجـة تخصـــب معها الإناث حتى لتلد الـشاة مرتين فى العام ، وتنجب النساء فى الغالب توائم » ٠

ومن شدة جـريان حبى فـى قلوب وعقول المـصريين القدمـاء أطلقوا عـلىّ عدة اسـماء منهـا مثـلاً « يارو » أى البـحر الأعظم ، كـذلك اسـم « ايتـروعا » أ ى النهـر العظيم ٠٠ ووصفونى بأنى « رب الرزق الوفير » و « رب السمك » و« والد الأرباب» و « واهب الحياة » ، كما أطلقوا علىّ اسم « حابى »أى الروح التى تَكمُن خلف هـذا النهر العظيم وتدفع بمياه فيضه حاملة الخصب والماء » .

اغرورقت عين النيل بالدمع ، فلما سأله أحد المقربين منه : « أهى دموع الفرح ، أم دمـوع الحزن ؟ قـال : « بل هى نسـمـات الفرح العـليلة تتـساقط من عـينى عندمـا تذكرت هذا النشيد الذى كان ينشده المصرى القديم فى الغدوة والرواح ٠

اقترب أحد الصبية الصـغار من النيل وقال له فى شغف : « أيها النــــهر العظيم استـحلفك باللّه الذى يُمرضك حـينًا ، ويشفيك من المرض أحـيانًا أخرى أن تُـسـمعنا

---

(١) نفس المرجع السابق .

كلمـات هذا النشيـد فـربما سكنت كلماتـه فى قلوبنا نحن الصـغار فـرددناه بيننا وبين أنفسنا ، فعلمنـــاه للأجيال القادمة ٠

فى سعادة لا توصف قال النهر الخالد : « فى الغدوة والرواح كان ينشد المصرى القديم فيقول :

كل من يرى النيل فى فيضـانه تدب الرعشة فـى أوصاله
أمـــا الحـــقـــول فـــتـــضـــحـك
وأمـــا الشـــواطئ فـــتكســوها الخـــضــــرة
وتتـــساقط هبـــات الإله وتعلـو الفـــرحـة البـــشـــر ،
وأمـــا قلوب الإله فـــتـــخـــفق مـن الســعـــادة (١)

أسطورة ايزيس وأوزوريس

نظر النيل فـوجد شـاباً حسن المظهـر والهندام قـادماً إليـه من بعيـد وهو يلهث فأدرك أن الشاب يريد أن يطرح على مـسامعه سؤالاً ، آنذاك هش له النهـر وأشار إليه أن يقول سؤاله ليُسمـعه الجموع الغفيرة ، فقال الشاب : أيهـا النهر الذى نعشق مجراه كمـا نعشـــق ضـفافـه ، هلاّ قصـصت علينا هذا الصراع الدامى الذى تمخـضت عنه أسطورة « أوزوريس » وأخيه « ست » ؟ ٠

تنهد النـيل وبعد زفرة حـزينة قال : أيهـا الشاب السائل لقـد نَسَجَت الأسـاطير خيـوطاً كخيوط العنكبـوت فوارت وحجبت وراءها الحـقائق فصارت قـدرة الإنسان على تمييـز بعض الحقائق أمـراً مستـحيلاً علـى الـجُهلاء من ضـعاف الرأى ، فى حين أضحى هينًا علـــى أصحاب البصائر ٠٠ سكت النيل برهة وراح ينظر بعينين زائغتين إلى الأفق البـعيـد ثم قـال : « كان صـراعًـا بين الخيـر والشـر ، بين أوزوريس سلطان الوادى، وأخيــه ست سلطان الصحراء » .

(١) نيل مصر تاريخ ، حضارة ، كيان ، الهيئة المصرية العامة للاستعلامات عام ١٩٩١ ، صـ ٩ .

يصمت النهر لحظات ثم يقول مرة أخرى : تقول الأسطورة ـ التى أفصح عنها الخيال البشرى ـ أن سلطان الوادى أوزوريس حرر الناس من حياة الهمجية ، وعلمهم الزراعة ، وشرع لهم القوانين ، وحثهم على التقوى واحترام الآلهة ، وأن هذا أثار ، بل حرك ، براكين الغيرة والحقد عند أخيه ست سلطان الصحراء الشرير ، فلما وصلت حمم البراكين الثائرة داخل ست عنان السماء دبر مؤامرة لأخيه للتخلص منه ٠

انفلت أحد الصغار من بين أهله وذويه واقترب من النهر وقال له والدهشة ترتسم على وجهه : وماذا بعد ؟ ! ٠

قال النهر مرة أخرى : صنع ست تابوتاً فخماً تتفق مقاييسه تماماً مع مقاييس جسم أخيه ٠٠ وسُرعان ما أقام حفلاً دعا إليه أخاه ، وحتى لا تنكشف المؤامرة دعا ست مع أخيه لفيفاً من الناس ، وإذا به بدهاء الثعلب المخادع يعرض عليهم التابوت ، فلما أبدوا إعجابهم به ، وشاهد البشر يعتلى وجوههم وعدهم أنه سوف يهدى التابوت الفخم لمن يتسع له جسمه ٠

وبدأ الصراع من أجل الفوز بالتابوت ، وأخذ الواحد تلو الآخر يُلقى بجسمه داخل التابوت لعله يفوز به فيتباهى على أقرانه ٠٠ فلما جاء الدور على أوزوريس بعد فشل الآخرين ألقى بنفسه هو الآخر بداخل التابوت لعل وعسى ، ونام المسكين الضحية أوزوريس بداخل التابوت وهو لا يعلم أنه القبر ، وما هى إلا لحظات أو تكاد وينهال عليه التراب المتمثل فى غطاء التابوت ٠

أسرع الشرير ست وأحكم هو وأعوانه إغلاق التابوت ، ثم ربطوه بالحبال وقذفوا به جوفى ، ولما كنت لا أحب الخيانة فإذا بى أقوم فأقذف التابوت بقوة فيحمله التيار الغضوب مثلى إلى البحر المتوسط ، إلا أن صديقى المتوسط ألقى به هو الآخر إلى جبل « شمال بيروت » فنبتت شجرة ضخمة احتوته باطنها [1] ٠

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٨ .

وأسرعت الزوجة المكلومة « إيزيس » تنوح كالثكلى نواحاً خفياً صـــــادراً من معـدتهـا الخـواء الـتى لم تعـرف طعم الزاد ، وكـيف ؟ وهـى لاتدرى إلى أين ذهب الحبيـــب ، أهو حى ترتجيه ، أم ابتلعته البرية ! ٠

وخـرجت إيزيس تبـحث عن زوجـهـا بطول الوادى وعـرضه ، فلمـا وجـدت التــابوت عـادت به إلى مصـر وأخفتـه فى أحراش الدلتـا ، وتركت المكان على أمل زيارة رضيعها « حورس » والعودة ٠٠ إلا أن عين ست كانت للتابوت بالمرصاد ، وأما مخالبه فلم تخطئ فسُرعان ما حـطت من عليائها وكانت للتابوت كلاليب لا يستطيع الفكاك منها ، وقام ســت فقطع جثة أخيه إلى أشلاء ونثرها بطول البلاد وعرضها ٠

وعادت إيزيس تبحث من جديد عن أشلاء جثة أوزوريس وهى تبكى - لا - بل تنتحب ، فـتساقطت دمـوعها علـى وجه أوزوريس فعـاد للحياة ، وكـانت عودته إلى الحياة ليلة وفـــاء النيل [1] ٠

---

(١) هناك مزاعم كثيرة اعتـقد فيها المصريين القدماء ، حتى أنهم دونوها على القبور منهـا : اعتقد القدماء أن أوزوريس نائم عند منابع النيل ، ويجـرى النهر من بين سـاقيه .. وتقـول قصة هلاك البـشر المدونة على قبر سيـتى الأول بجبانة طيبة : أن رع عندما أرسل الآله « تحوت » رمز الحكمـة والمعرفة إلى ابنته يستدعيها إليه من النوبة ، وكان ذلك وقت جفاف النيل .. حنت حتحور لأبيها فبكت فجرى النيل من دموعها وكانت شفاعة المصرى القديم يوم الحساب المسجلة فى « متون الأهرام » تبرأ من تلويث النيل فتقول : كان المصرى القديم يقف عند بعثه وحسابه يقول : أنا لم أتسبب فى بكاء أحد ، أنا لم أخطف اللبن من فم الرضيع ، أنا لم ألوث ماء النيل .

عم السكون المكان للحظات ، وبدأت موسيقى خرير النيل تُسمع، وتحركت العيون تنظر إلى تلك الفتاة المحجبة الجميلةالتى تتهادى فى سيرها كالغزالة ، فلما وقفت أمام النهر قالت له فى وقار : يا نيل مصر ، يا سيد الأنهار[1] جاء ذكرك الميمون فى القرآن الكريم مرة « اليم » ، وأخرى « البحر » ، وثالثة « الأنهار » .

ويؤكد صدق ما نطق به لسانى الآن قول اللّه تعالى : ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ ﴾ [2] وقوله تعالى إخباراً عن فرعون : ﴿ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ﴾[3] .

سكتت الفتاة هنيهة ثم قالت فى عجلة بوجه بشوش : ليتك يا مهاب الطلعة يا تقى الفؤاد تحكى لنا شعورك وأنت تحمل تابوت موسى عليه السلام إلى حيث أمرك ربنا الذى يقول للشئ كن فيكون ؟ .

انفرجت أسارير النهر وراح يقص على الأهلين قصة أم موسى والتابوت فقال : « كان الوقت بين العصر والمغرب ، وكانت نسمات الهواء العليل تُداعب الأغصان وكأنها تُقبلها ، ورغم ذلك خلت ضفافى من البشر مخافة أن يقابل أحدهم جند فرعون فيفزعوه .. فى ذلك الوقت كانت أم موسى تحمل بقوة التابوت الذى بداخله موسى بين ذراعيها ، والناظر إليها وقتذاك يرى الاضطراب والخوف يبدوان عليها وهى تنظر تارة إلى صفحتى ، ثم إلى ما حولها ، وأخرى إلى التابوت الذى تضع بداخله فلذة كبدها .

فلما شعرت أم موسى بالأمن والأمان يتدفقان من قلبها إلى سائر جسدها ، وتيقنت يقينا ربانياً أنى أنا النهر مُسخرًا من قبل المولى عز وجل أن أحمل نبى اللّه موسى إلى بر السلامة ، ألقت بالتابوت على صفحتى التى تلقفته بحنان بالغ

(١) قائل هذه العبارة هو : سيدنا عبد اللّه بن عمرو بن العاص ، كتاب فتوح مصر وأخبارها ، صـ ١٤٩ .

(٢) سورة طه ، الآية (٣٩) .

(٣) سورة الزخرف ، الآية (٥١) .

لتوصله إلى حيث أمرنى ربى .

لكن كاد أمن أم موسى يتزعزع قليلاً ، أو لعله تزعزع بالفعل قليلاً ، عندما جاء إلى أم موسى الشيطان اللعين وهو يرتدى ثياب الواعظين ، وبدموع التماسيح قابلها ، وبلسان العقرب أخذ يقطر وساوسه ، فلما أعطت له أم موسى أذنها قال بلسان كذوب : « ويح الأم أوَتظن أنه عائد إليك مرة أخرى » ؟ ! وتركها ومشى .

تجهم وجه أم موسى وخفق قلبها وحدثت نفسها فى لوعة فقالت : « ماذا صنعت با بنى ؟ ! لو أنه ذُبح عندى لقمت فكفنته وواريته وكان هذا أحب إلىَّ من أن ألقيه بيدى فى البحر » .

وبينما أحمل تابوت نبى الله موسى لأضعه حيث أمرنى ربى كان فرعون وزوجته آسيا يجلسان على إحدى ضفتى فى مجلسهما المعتاد ، وكانت بنت فرعون قد أقبلت هى وجواريها حتى جلست على الشاطئ مع جواريها يتلاعبن وينضحن بالماء على وجوههن فى مرح .. وبينا هن على هذا الحال من اللهو إذ أقبلت حاملاً التابوت وقمت فوضعته بين الأشجا ر فتعلق بإحداها » .

وبينا فرعون ينظر لوجهى الرقراق شاهد التابوت فتعجب وقال لمن حوله من الجند : « إن هذا الشئ فى البحر قد تعلق بالشجر أئتونى به ! « ، فلما وضعوه بين يديه أمرهم أن يفتحوه فأخفقوا ، ساعتئذ تقدمت آسية بنت مزاحم من التابوت ففتحت الباب وكشفت الحجاب ، فرأت وجهًا يتلألأ بالأنوار النبوية هو وجه موسى (١) ، فلما رأته ووقع نظرها عليه أحبته حُبًا شديدًا (٢) .. سكت النيل برهة ثم قال مرة أخرى : « وبقية القصة تعرفونها » .

---

(١) قصص الأنبياء المُسمى بعرائس المجالس ، للثعلبى ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، لبنان .

(٢) قصص الأنبياء ، للإمام أبى الفداء اسماعيل بن كثير ، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ، دار الحديث ، الطبعة الثامنة ، ١٩٩٨ م .

فى دلال تقدمت فتاة الصفوف ، وفى رقة وعذوبة قالت : « يا رسول إفريقية وقلبها النابضٍ ، أسالك بحق مائك ونورك ونمائك : هل يُذهب غمك ، ويُسعد فؤادك ما قيل فيك من أشعار ومواويل ، وأمثال ؟ .. قال : اللهم نعم ، فقالت الفتاة مستفسرة : أوَ تذكرها ؟ قال : وكيف لا أذكر هذه الأذكار التى أرتلها بينى وبين نفسى عندما تحيط بى أيدى العابثين الجُهلاء ، وأقسم لكم أنى عندما أسمعها تصفو نفسى ، ويصفو مائى وسرعان ما أندفع أعانق الحقول فأسقيها حبًا .

توقف النيل عن الكلام برهة ثم قال : « إن حبى كان وارف الظلال ، فكما أظل قديمكم وحديثكم أظل أبناء الأقطار المجاورة ، وعبروا عنه بأشعارهم ، حتى العجم عبروا عنه هم الآخرون بكلماتهم الرقيقة عن إعجابهم الشديد بشخصى ، وامتد هذا الحب إلى البسطاء من أبناء القطر المصرى من أقصاه إلى أقصاه فباحوا بحبهم فى صورة مواويل وأمثال ، إن شئتم أسمعتكم بعضًا منها الآن » ؟ .

هتف أبناء مصر وقالوا فرحين : وهل يعقل ونحن فى حضرتك يا بحر النيل أن ندع هذه الفرصة تفوتنا ونحن نعلم أنها قد لا تتكرر فى حياتنا مرة أخرى ؟ .

* * * * *

فى إعزاز قـال النيل وهو يرفع عنقه إلى أعلى كـما يفعل الديـك عندما يريد أن يصيح : « أقدم ماورد فى نيلكم من أشعار هو مـا ذكره الأعشى فى مدح قيس بن معد يكرب قائلاً :

ما النيل [1] أصبح زاخرا من مده   جـاءت له ريح الصبا فجـرى لها

زبدا ببابـل فهـو يسـقى أهلـها   رغـدا تفـجره النبـيط خلالها

يومـا بأجـوَد نائـلا منـه إذا   نفس النجيل تجهمت لسؤالها [2]

تنفرج أسارير النهر وهو ينظر إلى الأهـلين من أبناء مصر المحروسـة ويقـول : « وأبو نواس ذلك الشاعر الذى دان له الشعر لم يذكر النيل إلا فى مناسبتين عندما زار مصر ومكث بها مدة .

فى المناسبة الأولى يمدح فيها النيل الخصب فيقول :

أنت الخصـيب وهـذه مصـر فتدفقا فكلاكما بحر

النيل ينعش ماؤه مصرا ونداك ينعش أهله الغمر [3]

وفى المناسبة الثانية يظهر بغضة للنيل حين حذروه من تماسيحه فيقول :

أضمـرت للنيل هجرانا ومقليـة   مذ قيـل لى إنما التمساح فى النيل

فمن رأى النيل رأى العين من كثب   فما أرى النيل إلا فى البواقيل [4]

---

(١) هناك نيلان آخـران غيـر نيل مصر ، أحـدهما حفـره الحجـاج بن يوسف بالكوفة ، أمـا الآخر فحـفره الرشيد بالرقة .

(٢) ديوان الأعشى الكبـير ، تحقيق د. محـمد حسين ، والأعشى هو « مـيمون بن قيس » الشـاعر الجاهلى الذى أدرك الإسلام فى آخر عمره ، وعرف باسم « صناجة العرب » .

(٣) ديوان أبو نواس ، قصيدة مجلس السرور ، ص ٤٧٩ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٥٦١ ، والبوقال هو مفرد البواقيل ، وهو الكوز بلا عروة .

وهذا ابن فضل الله العمرى الذى يفخر بمصر والنيل فيقول :

يحق لمصر أن تتيه إذا جرى | بها النيل وامتدت إليه عيون
فما مثله من زائر لقـــدومه | تقــر عيــون إذ تقر عيون

أما البهاء زهير (المتوفى سنة ٥٦٥ هـ) فاستحضره حنين وشوق الأيام الجميلة التى قضاها على ضفافى فقال :

فرعــى الله عــهد مــصر وحــيا | مــا مضــى لـى بمصر من أوقات
حبــذا النيـــل والمراكـــب فيـــه | مصعــدات بنا ومنــحــــدرات
هات زدنى من الحديث على النيل | ودعـنى مـــن دجلـة والفـــرات
وليـــالى بالجـــزيرة والجيــــــــ | ــــزة فيمـا اشتــهيت من لذات
بين روض حكى ظهور الطواويـــ | ـــس وجــو حكـى بطون البزاة
حيث يجـرى النيل كالحـــية الرقـــ | ـــطاء بين الرياض والجنات[1]

ويقول فى قصيدة أخرى :

حبذا دور على النــيل | وكاســـــــات تــــــــدور
ومسرات تموج الــــــ | أرض فيهـــا وتمـــــــــور[2]

وعن أجـود ما قـيل فى ـ أنا نهـر النيل ـ من قصـائد مـا قاله « كـافى الدولة أبو العباس أحمد بـن مفرج » بين يدى الخليفة الفاطمى الحافظ فى الاحتـفال بكسر السد (وكسر السد هنا يعنى فيضان النيل إلى ستة عشر ذراعًا) قال :

لمن اجتماع الخلق فى ذا المشهد | للنيل أم لك يا ابن بنـــت محمد
أم لاجتـماعكما معا فى موطن | وافيتمـا فيـــه لأصـــــدق موعد
ليس اجتـــماع الخلق إلا للذى | حـــاز الفضـيلة منكـما فى المولد
شكــــروا لكـــل منكما لوفائه | بالسعـــى لكـــن ميلهم للأجود[3]

(١) ديوان البهاء زهير ، صـ ٣٠ ، ٣١ .

(٢) نفس المرجع السابق ، صـ ٨٧ .

(٣) نهر النيل فى المكتبة العربية ، محمد حمدى المناوى ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦، صـ ٥٦ .

يسكت النيل هنية ثم يقول : وعن أقدم ما قيل فى الوصف هو ما قاله « تميم بن المعز » ليوم سرور قضاه على صفحتى الرقراقة ، قال تميم :

يوم لنا بالنيل مختصر ولكل يوم مسرة قصر

والسفن تجرى كالخيول بنا صعدا وجيش الماء منحدر

فكأنما أمواجه عكن وكأنما دارته سرر (١)

المماليك يحبون النيل النهر

يقترب أحد الشباب من النهر ويسأله فى ود مستفسراً فيقول : يا أمير الوادى لما كنا بالروضة معاقل المماليك كما تشير أسماء الشوارع ، فهلاّ حدثتنا عن : هل كنت فى عيونهم كما كنت دائما فى أعين الشرفاء والشعراء والأدباء ، وكل ذى بصيرة واعية ؟

قال النهر والفرحة بادية على وجهه : « لقد كنت ومازلت فى عيون وقلوب أبناء مصر المحروسة ، والقادمين إليها من بقاع الدنيا ، وإليكم ما جاء من شعر ووصف وبشارة على لسان من عاش هذا الزمان وتأثر بى أيما تأثير » :

فهذا « إيدمر التركى » الذى يتحرك ما بداخله من عاطفة جياشة لما ينظر ، فيرى زوارق النيل الجميلة وهى تتحرك محمولة على رقاب الأمواج ، وهى تسعى كما تسعى الحيات ، والأسماك تأتى من تحت الزوارق بلون الفضة فيقول فى أبياته :

انظر إلى النيل السعيد المقبل

والماء فى أنهار كالسلسل

أضحى يريك الحسن بين مورد

من لونه حينا وبين مصندل

ويمر فى قيد الرياح مسلسلا

يا حسنه من مطلق ومسلسل

---

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٥٨ .

وتـرى زوارقـــه علـى أمـــواجـــه

منســـوبـة لـلـنـاظـر المتـــأمـل

مـثـل العـقـارب فـوق حـيـات غـدت

يســعـى بهـــا فـى عـــدوها لاَ يـأتَلِ

وكـــأنما أســـمــاكـــه مـن فــضـــة

مـن جـــمــــد ذائـب مـــائه مـن أول

وهذا « برهان الدين القيـراطى » الذى يفـضل نهـر النيل عن كل أنهـار الشـام فيقول :

خـليلى بـحـــــر الـنيـل لاشط شـطـه

مــــــوارده تحـلـو لما والمصـــــــادر

فــدع عـنك أنهـــار الشـــام ولا تـكن

لـكـوثـره بـالـنـذر مـنـهــــــا تـكـاثـر

لـه شـــيم فـى الحـــسن ظاهـرة علـت

تـدور عـلى الأنـهـــــار مـنـهـــا الـدوائـر

بجـــانبـــه تمشى الملاح كـــأنهـــا

بســـاتين فـــيـــهـــا للعـــيـــون مناظر

فـكـم غـــــصـن بـان للـعـين نـرجـس

ولـلـخـــــد ورد عــــاطر الـزهـر ناضـــر

ويقول « إياس بن عبد الذهبى » فى كسر الخليج :

كـســـر الخليج وكـــان ذلـك نعـــمـــة

ســـــرت قـلـوب المسلمـين بـســــــره

ومن الـعـــجـــائب والـغـــرائب أنـه

جـــبـــرت قـلوب المسلمين بكســـــره

ويقول « الشهاب المنصورى » بخياله البارع وإحساسه العميق :

الحـــمـــــد للّـه أوفى وعــــده الـنيـل
إن الوفـــاء من المحـــبــوب مــــأمـــول

جــــرى جــــواداً فــــمن دارتـه غـــرر
لـه ومن زيـد الأمـــــواج تحـــــجــــيـل

يـنظـم الحـــــبـب الطـافـى وينـشـــــره
كــــــأنـه منـهـل بـالـراح مـــــعـلـول

كـــأنه الصـــبـــا صـبـــحـــا تجـعـــده
صـــوارم بـظبـــاهـا المحل مـــقــــتـول

كــــأنما الســـفن غـــادات جــــريـن به
لهــــا المراسـى شنـوف أو مـــراســـيل

مـن كل جـــــارية كـــــالخـــــود زائـرة
إزارها قــــبـل أن تلـقـــــاك مــــحلـول

كــــأنما الـشط والأمـــــواج تـلطـمـــه
دف لهـــــا وخـــرير المـاء مــــوصــــول

كــــأنما الروضــــة الغـنـاء غـــانيــــة
بحـــسنهـا قـلب هذا النـيل مـشـــغـول

أغـصـانهـا من غـصـون الـدوح مـائسـة
وريقــــهــــا زلال المـاء مـــعـــســـول

مـن سنـدس الزهـر الـزاهى لـهــــا حلـل
خـضــــر ومن ســورها الـعـالى أكـــاليل

ومــدت الدوح مـن أوراقــهـا خــتـــمـا

ومن عناقيدها لاحت قناديل

وللنخيل إذا ماست قلائد

حمر اليواقيت حاكتها العثاكيل

لاغرو أن سحرت عينى وخيل لى

بأنها ذهب وهى التماثيل

يا من له رغبة عن نيل أفق

قلبى على حب هذا النيل مجبول (١)

وقد نظم الشاعر « شهاب الدين البزاغى » قصيدة شاكية طويلة فى وقت التحاريق وصف فيها ما أصاب البلاد والناس من مضاعفات الجدب والغلاء فقال فى بعض أبياتها :

ولما غاض بحر النيل فاضت

دموع من محاجرهم سجام

ومد به من الأموات سيل

لنقص عبابه منه تمام

ويصف الفرسان والأغنياء فيقول :

ترى الفرسان تحسبهم رفاة

من الأجداث قبل البعث قاموا

تفطر منهم الأكباد جوعا

كأن الفطر عندهم صيام

وأما الأغنياء فقد أباحوا

حمى الأموال وانخرم النظام

---

(١) النيل فى عصر المماليك ، د. محمود رزق سليم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ ، صـ ١٠٨ ، ١٠٩ .

أما الشاعر « شمس الدين النواحى » فقد أبكانى عندما اتجه إلى اللّه سبحانه وتعالى يرجوه حنانه ورفقه ، ويستسقيه غيثه ، ويستمطره رحمته وعونه للناس والحيوان الذى أصبح مهزولا ، فها هو يقول :

حنانا حنانا يا مغيث الورى فقد
يئسنا وكل الخلق أصبح مبتلى

فما مملق إلا إلى بابك التجأ
ولا معدم إلا عليك توكلا

وسقيا ورعيا للمواشى فقد بدت
كلاها وكل السير فى طلب الحلى

وإن تاه قوم بالغلا وترفعوا
علينا ومالوا للقطيعة والقلى

فواللّه لا نرجو سواك ولا نرى
بيوم لهم فضلا علينا ولا ولا

إليك توسلنا بجاه نبينا
فما خاب من أمسى به متوسلا [1]

ما زالت الأذان تسمع فى شغف إلى ما يلقيه عليها النيل النهر من أشعار منسوبة إلى عصر المماليك ، فلما توقف بادره البعض بالسؤال فقالوا : « وماذا عن البشارة والمقامة يا سيد الأنهار» ؟

قال النيل فى بشاشة : « يا أيها السائل الذى أسمع صوته ولا أراه ، كانت البشارات تكتب فى مناسبات عديدة ، أهمها وأحبها إلى القلب مناسبة فيضان النيل الذى يوفى فيه النهر بخيره فيكسر آنذاك سد الخليج [2] ، أما المقامة فهى التى تجمع بين

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ١٢٣ .

(٢) كان الاحتفال بوفاء النيل تقليداً من تقاليد الدولة ، وهو موروث عن الأسلاف ، يجرى الاحتفال بأن يركب السلطان أو مندوبه سفينة تتبعها سفن أخرى ملأى برجال الدولة والجند تسير بهم إلى مقياس الروضة ، وبداية الاحتفال هى طلاء المقياس بالخلوق وهو نوع من الطيب ، ثم الدوران إلى موضع السد وهو قائم فى فم الخليج فيكسره العمال فتتدفق مياه النيل فى الخليج ، ثم يعود السلطان الذى يهدى هدايا وأولها إلى أبى الرداء المبشر بزيادة الفيضان .

أسلوبى القص والحوار ، فلما يطلب الجميع من النهر بالحاح أن يقص عليهم بعض من بشارة ، ومقامة يوافق النهر ويقول : هذه بشارة « لمحيى الدين بن عبد الظاهر » كتبها عن الملك المنصور قلاوون إلى نائب حلب يقول فيها :

« ولما كان يوم ...... تكامل وفاؤه ستة عشر ذراعاً ، فأتينا المقياس فضمخنا أركانه وعطرنا مكانه ، وقلنا لعموده أهلا وسهلا بعمود الصباح ، وبشير الأرواح ، وديوان الفلاحة وعدلنا إلى الخليج فإذا عليه أمة من الناس يستسقون بل يستشفون ، وأمم كأنهم جان ولكنهم لا يستخفون ، فاستقبلناهم فقالوا ، جاء الخير ، وشاهدناهم فقالوا : « هذا سليمان وقد حشر له جنوده من الجن والإنس والطير ، فأمرنا بالخليج فتلقف ثعبانه ما صنعوا ، ووصل ما قطعوا ، وفرق من التراب ما جمعوا » .

وانقضى هذا اليوم وبشائره قد ملأت الربى والوهاد .. واللّه يجعل دولتنا بالخصب والنماء تفخر ، ويضع البركة حيث يحصل اليأس ، حتى لا يغدو بعض الممالك من بعض يسخر [1] .

وأما هذه فمقامة « لشهاب الدين أبى حجلة المغربى » فى وصف زيادة النيل وطغيانه عام ٧٧٣ هـ ، قال ابن أبى حجلة .

« عن أبى الرياش » قلت : ما وراءك يا عصام ، فقد بلغنا أن النيل تزايد وتزايد دفعه وأدى إلى الضرر نفعه ؟؟

فقال : خذ العفو ولا تكدر بذكر النيل الصفو ، فقد امتزج بالمعصرات ثجاجه ، وأعيا طبيب الغيطان علاجه ، وشرق حتى ليس للشرق مشرق ، وغرب حتى ليس للغرب مغرب ، قلت : فما فعل النفير بجزيرة الطير ؟

قال : لم يبق بها هاتف يبشر بالصباح ، ولا ساع يسعى برجل ، ولا طائر يطير بجناح ، إلا اتخذ نفقا فى الأرض ، أو سلمًا فى السماء ، أو أوى إلى جبل يعصمه من الماء ، فأفاق الحمام حمام فى البروج ، وترك أرضها كسماء مالها من فروج ، وتلا

---

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٧٣ ، ٧٤ .

على الحمام : أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج ، وكم فى سمائها من نسر واقع ، وبومة تصفر على ديارها البلاقع ، ومنهل فى الغراب ميت سقيت منه القوم وسقيت » .

وفى موضع آخر من نفس المقامة يقول ابن أبى حجلة :

قال : « أصبحت للبحر مقره ، بعد أن كانت للعيون قرة » .

وقيل لمنشيها : أنى يحيى هذه اللّه بعد موتها ، قال يحييها الذى أنشأها أول مرة « وقد مال على ما فيها من شون الغلال كل الميل ، وتركها تتلو بفمها الذى شفتاه مصراع بابها : يا أبانا منع منا الكيل » .

قلت : فجزيرة أورى ؟

قال : « قد أفسد جل ثمارها ، وأتى على مقاتها ، فلم يدع شيئًا من رديئها ولاخيارها ، أخلق ديباجه روضها الأنف ، وترك قلقاسها فى الجروف على شفا جرف.. لم يفده تحصنه من أوراقه بالدرق والستائر ، ولا حن عليه حين تضرع بأصابعه فصح أن السلطان ماء جائر » .

قلت : فحكى ابن الأثير ؟

قال : لم يبق منه إلا الثلث والثلث كثير ، قد أخمل من دوره خمائلها ، وجعل أعاليها أسافلها ، فكم دار أعدم صاحبها قراره ، ونادى فى عرصاتها المتداعية ، إياك أعنى واسمعى يا جارة ، فأصبحت بعد نفعها قليلة الجدا ، مستولية على يد الردى .. شبيهة بدار الدنيا لأنها دار متى أضحكت فى يومها أبكت غداً .. (1) إلخ .

وتطاولت الأعناق تنظر إلى النهر وهو يقول لهم بصوت عذب ووجه تعلوه البشاشة : وقبل أن أنتقل بكم إلى البساتين التى يفوح منها شذى الورد والفل والياسمين خلال أبيات من شعر البارودى وشاعر النيل حافظ ابراهيم ، وأمير الشعراء

---

(1) النيل فى عصر المماليك ، د. محمود رزق سليم ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٩٦٥ ، صـ ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ .

أحـمـد شـوقى ، أحب أن أُسـمعكـم ما يطـرب له قلبى من وصف جـاء على لسـان القاضى الفاضل [1] قال :

« النيل المصرى الذى يكسو الفضاء ثوباً فضياً ، ويذكى ماؤه فى الأرض سراجاً من النور مـضيـاً ، ويتـدافع تياره دافـعاً فى صـدر الجـدب بيد من الخـصب ، وترضع أمهات خلجانه المزارع فتأتى أبناؤها بالعصف والآب » [2].

ويصف الفيـضان بقـوله : « وأما النيل المبـارك فقد مـلأ البقـاع من الأصبع إلى الذراع فكأنما غار على الأرض فغطاها وأغار عليها فاستقعدها وماتخطاها ، فما يوجد بمصر قاطع طريق سواه ولامر غوب مرهوب إلا إياه » [3] .

النيل فى شعر البارودى وحافظ وشوقى

ومن شعر البارودى الذى يصف فيه الروضة والنيل قوله :

ليت شـعـرى متى أرى روضــة المنـ	يــل ذات النخيل والأعناب
حيـث تجــرى السفـين مـستـبـقات	فـوق نهر مـثل اللجين المذاب

وفى قصيدة أخرى يصف روضة المقياس فيقول :

هل فى الخـلاعة والصبـا من بأس	بين الخليــج وروضـة المقيـاس
أرض كســاها النيل مـــن إبداعه	ولـبــــاسه الموشـــى أى لـباس
فكأنمــا هـــوت المجــرة بينــهـا	فـتشكلت فى جـملة الأغـراس
يتلهــب النـــوار فـــى أطراقـها	فـتخــــاله قبـساً من الأقبـاس
لولا مـساس الطـل أحـرق ضوءه	ذيل الخمائل رطبها والعاس [4]

---

(١) هو أبو على عـبد الرحـيم بن الحسن اللخمى الـبيـسانى العـسـقلانى ، وزير صـلاح الدين ، ولد فى عسقلان (٥٢٩ هـ ـ ١١٣٥ م) .

(٢) مسالك الأبصار ، لابن فضل اللّه العمرى ، جـ١ ، صـ ٦٧ .

(٣) نهاية الأرب ، للنويرى ، جـ١ ، صـ ٢٨١ .

(٤) النيل فى المكتبة العـربية ، محمد حمـدى المناوى ، الدار القومية للطباعـة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٦٣ ، ٦٤ .

وأما هذه فبعض أبيات من أشعار حافظ إبراهيم التى تغنى بها للنيل فقال فى مدح الخديوى عباس الثانى :

نظرت للنيل فاهتزت جوانبه	وفاض بالخير فى سهل ووديان
يجرى على قدر فى كل منحدر	لم يجف أرضاً ولم يعمد لطغيان
كأنه ورجال السرى تحرسه	ملك سار فى جند وأعوان
قد كان يشكو ضياعاً مذ جرى طلقاً	أقمت له خزان أسوان[1]

ويقول حافظ إبراهيم فى تحية أحمد شوقى سنة ١٩١٩ :

النيل مذ ألقى إليه بسمعه	والماء أمسك فيه عن جريانه
فأصدح وغن النيل وأهزز عطفه	يكفيه ما عناه من أحزانه[2]

وفى وصف الباخرة دندرة وسعد زغلول على متنها سنة ١٩٢٦ يقول حافظ :

ما بال دندرة تميس تهادياً	ميس العروس مشت على استبرق
والنيل يجرى تحتها متهللاً	والموج بين مهلل ومصفق[3]

ومن روائع شوقى وحافظ هذه الرسالة التى بعث بها شوقى إلى حافظ وهو فى منفاه بالأندلس ، ورد حافظ عليها :

أرسل شوقى إلى حافظ يقول :

يا ساكنى مصر إنا لانزال على	عهد الوفاء ـ وإن غبنا ـ مقيمينا
هلاّ بعثتم لنا من ماء نهركم	شيئا نبل به أحشاء صادينا
كل المناهل بعد النيل أسنة	ما أبعد النيل إلا عن أمانينا

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم ، جـ١ ، صـ٢٩ .

(٢) نفس المرجع السابق ، صـ٩٩ .

(٣) نفس المرجع السابق ، صـ١١٨ ، ١١٩ .

فرد حافظ عليه قائلاً :

عجبت للنـــيل يدرى أن بلبـله صاد ويسقــــى رُبا مصر ويسقينا
واللَّه ما طاب للأصحـاب مورده ولا ارتضوا بـعدكم من عيشهم لينا
لـم تنـأ عنه وإن فارقت شـــاطئه وقــد نأيـــنا وإن كـنا مقيمينا (١)

ومن أروع ما قال شوقى فى النيل يخاطبه قوله :

مـن أى عـهــد فـى القـرى تـتـدفق وبأى كـف فـــى المدائن تغـدق
ومن السـماء نـزلت أم فجـرت من عليـا الجـنان جـداولا تـترقـرق
وبـــأى عـــين أم بـأية مـــزنـــــة أم أى طـوفـان تفيـض وتفـهق
وبـــأى نـــول أنت ناســـج بـــرده للضـفـتين جـديـدها لا يخلق
تسـقـى وتطـعـم إنـــاؤك ضـائق بالواردين ولاخــوانك يتـفق
والمــاء تسكـبـه فيسبك عـسجدا والأرض تغـرقها فـيحيـا المغرق

ويقول شوقى مخاطبًا النيل :

أيه يا نيل كـم بنيـــــت حيـــاة وصحبـت الزمان فـــى خطراتك
قد نبتنا على ثـــــــراك نبــــاتا وطعمـــنا الجـنى مـــن ثمراتك
لا ترى الأرض ما خطوت مـواتا بل تســير الحيـاة فى خطواتك
أنت تهـــدى لنا شـهيا فراتـــك كـل حـى أنفـاسـه مـن فـراتك

وهذا أبو الصلت أمية ابن عبد العزيز الأندلسى الذى قال :

كــــأن البـــــركـــــة الـغنـاء إذا مــــا
غـــدت بـالماء مـــفـــعـــمــــة تموج
وقـــــد لاح الـضـــــحـى ، مـــــرآة قـين
قــد انصــقلت ومــقـبـضــهـا الخـليج (٢)

---

(٤) النيل فى المكتبة العربية ، محمد حمـدى المناوى ، الدار القومية للطباعـة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، صـ ٦٩ .

(٢) ديوان القاهرة ، لحزين عمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، صـ ٧٥ .

وتحدث « نصيب بن رباح عن ابن ليلى » (عبد العزيز بن مروان) فقال :

يقـــول ، فـيـــحـــسن الـقــول ابن لـيلى
ويفـــعل فـــوق أحـــسن مـــا يـقـــول

فــــــــتى لا يـرزأ الخـــــــلان إلا
مـــــــــوتـهـــم ويـرزؤه الخـلـيـل[1]

فــبـشــــر أهل مـــصـــر فـــقــد أتـاهم
مع الـنيـل الذى فـى مـــصـــر نيـل[2]

ولم يقعد أمير الشعراء شوقى كثرة تفكيره فى أيهما يستأثر عن الآخر ، أيستأثر الجنة عن مصر ، أم يستأثر مصر عن الجنة ، إلا أنه لـفرط حبه لمصر ، ولنيلها جعل منى أن النيل الجـود والكرم يهـديه إلـى المسلمين حين قـال : فى بعض أبيـات من « كـبـار الحوادث فى وادى النيل » .

فابك عمرا إن كنت منصف عمرو — إن عمـــرا لنيـــر وضـــــاء
جـــاء للمســـلمين بالنـــــيل — والنيـــل لمـــن يقتـــنيه أفـريقاء
فــهى تعــــلو شـأنا إذا خـــرر — النيـــل وفـــى يرقة لهـــا إزراء

وغلى الدم فى عروق شـوقى وصارت غيرته تملأ الأسمـاع لما رأى نابليون يريد أن يبنى دولته على جسدى الفاتح ، فأسرع ابن مصر البار فأخرج سيفه وكتب فقال :

وأتى النيـل[3] ينهـب الأرض نهبا — حـــوله قومــــه ، النســــور ظـمـــاء
يشتهـــــى النـــيل أن يشيد عليه — دولـــــة عــرضهــــا الـثـرى والسماء
حلـــمت رومـــة بهـــا فى الليالى — ورأهـــا القـــــياصـــر الأقـــويـــــــاء

---

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٧٦ .

(٢) كان عبد العزيز بن مروان والى مصر قد اشترى نصيباً هو وأهله فاعتقهم ، وكان نصيب يفد إلى مصر كل عام ، يسأل عبد العزيز العطاء ، فيغدق الأمير عليه ، فتتهيج مشاعر نصيب طربًا بهذا الكرم ، وهو لم يقل (ابن ليلى) إلا لحب العرب حـينذاك أن يذكروا بأمهـاتهم إذا كن كريمات النسب ، عميـقات الجذور فى الأصالة .

(٣) النسر : المقصود بالنسر نابليون بونابارت .

فأتـت مصـر رسلـهم تتـوالى ... وترامـت سـودانها العلـماء

ولـو استـشهد الفرنسيين روما ... لاتتهـم مـن رومـة الأبنـاء

علمـت كـل دولة قـد تولت ... أننا سمـها ، وأنـا الـوبـاء

قاهر العـصر والممالك ، نابـ ... ـليـون ولـت قـواده الكبـراء

جاء طيشا ، وراح طيشا ومن قبـ ... ـل أطـاشـت أناتـها العلـياء

سكتت عـنه يوم عيرها الأهـ ... ـرام لكـن سكـوتهـا استهـزاء

فهـي تـوحي إلـيه تلـك واتـ ... ـرلو[1] (فأين الجيـوش ؟ أين اللواء[2]

ولم يتوقف الشعراء القدامى عند عطائى وسحر مائى ، بل تجاوزوه فسجلوا بعض حالات فيضانه الذى ينتظره الناس فى لهـقة ، وأمل ، فهذا « خليل بن الكفتى » الذى كتب فقال :

قـالوا عـلا نيل مـصـر فى زيـادته

حـتى لـقـد بلـغ الأهرام حين طمـا

فـقـلت هـذا عـجـيب فى بـلادكم

إن ابن سـتـة عـشـر يبـلغ الهـرمـا [3]

---

(١) واتر لو : موقعة دارت رحـاها بين نابليون وولنجتون القائد الانجليزى الشـهير فى ١٨ يونيه ١٨١٥ ، وانتصر فيهـا الأخير بمساعدة « بلوخر » القائد الروسى ، وكان من نتـائج هزيمة نابليون فى هذه الموقعة أسره ونفيه إلى جزيرة (سنت هيلانة) حيث قضى البقية الباقية من حياته .

(٢) أحمد شوقى حيـاته وشعره ، المكتبة الحـديـثة للطـباعة والنشر ببـيروت ، الطبعـة الأولى ١٩٨٧ ، صـ ٩٦، ٩٨ .

(٣) ديوان القاهرة ، حزين عمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، ص ٧٧ .

الحب يورث

أما هؤلاء الشعراء المصريون الذين هاموا بالنيل ، فكتبوا فى حبه أبياتًا وأبياتًا ، بقلم مداده حب النهر الذى يسرى فى الأقلام والقلوب ، الشاعر « محمد التهامى » الذى كتب فى حبى يقول :

طف بالرمال وأحيها يا نيل
ما أنت - ياسر الحياة - بخيل
وأنثر بها القبل العذاب على الثرى
يبعث مواتا فوقها التقبيل
أجراك ربك بالحياة ، وطالما
نبتت حياة الناس حيث تسيل
وحباك قدرة صانع هذا الثرى
فمضت يمينك للجبال تهيل
فإذا بها وهى الشوامخ تنحنى
وإذا بها فى راحتيك سهول
وإذا الصحارى القفر تفتح صدرها
وتصول أنت بصدرها وتجول
وتحيلها - وهى العبوس - بشاشة
خضراء يقطر ريقها المعسول
وجرى النماء وراء خطوك ما استوى
يمضى وإن مال المسير يميل
أبدعت حين بنيتها مزدانة
ما فاتك التزيين والتجميل

والناس حولك قد ملكت نفوسهم

وتحيرت فيما صنعت عقول

واليوم حين رأيت شعبك قد غدا

حُراً وأشرق فجره المأمول

لم ترض أن يحيا بأرضك أهلها

والخير فى يدهم هناك ضئيل

فخفضت رأسك فى سمو بالغ

للسد يحفظ ماءنا ويحول

ويسيل خيرك كله فى أرضنا

ماذاك - ياسر الحياة - قليل[1]

وعند أسوان يقف التهامى ليشدو للنهر الذى يعشقه فيقول :

قالوا له يا نيل إنا هزنا

ما قد صنعت فكلنا شكران

لكننا يا نيل نبنى عالما

للكل لن يبقى به جوعان

والماء عندك للخضم مسيله

وعلى ضفافك يجثم الحرمان

سنسد ماءك ، ثم نعلى قدره

وأمام سدك يوضع الميزان[2]

---

(١) أغنيات لعشاق الوطن ، محمد التهامى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٩٠ ، ٩١ .

وفى وفاء النيل يقول التهامى :

إن ذاك الفـيض من أمـواجـه
بعض دمع حائر فى مقلتيه

صاحب المجد بكى من فرحة
فاقد المجد بكى حزنا عليه

مرهف ما حاد فى أعوامه
عن وفاء غامر من دمعتيه

صادق ميعاده لم نلقه
غير بر صادق فى حالتيه

ومن هؤلاء الأوفياء الذين سطروا السيمفونيات ، السيمفونية تلو الأخرى هو الصديق الصدوق الدكتور / حسن فتح الباب الذى يقول فى غنائيات النيل :

أيها النيل الساقى اسقنا حتى ترانا
بعض ماء النيل
خمراً ودنانا
يولد الراعى من الطمى
ليبقى
عاريا مثلك
لكن الكفن
تستوى فيه بغى
ووثن (1)

ويقول فى « لك ما أودعتنى » :

أيها النهر الذى يغمرنا

---

(1) مواويل النيل المهاجر ، د. حسن فتح الباب ، دار الثقافة الجديدة ، ١٩٨٧ ، ص ٦٠ .

عسلا .. موتا بهيجا .. ياسمين .

لم يزل محلاك سير العاشقين

شفقا .. فجرا رقيقا .. وسنا

أبهذا الطائر الساجى الرفيق

مغرقا فى الضفتين

مشرعا كالرمح فى قلب (الصعيد)

والذراعان على البحر رحيق وحريق

لست مصلوبا فمن يذكر ليلاتك

من يذكر أيامك يا نيل

على ثغر (رشيد)

و (طوابيك) على (دمياط)

يا نيل ورؤيا (بورسعيد)

قلبك الشمس وعيناك القمر

ويظل فتح الباب ينثر وروده إلى أن يصل فى نهاية القصيدة فيقول :

لك ما أودعتنى

والذى أبقيت لى

حلم صياد صغير

وملاذا لأجير (١)

ولعل الدكتور حسن فتح الباب فى قصيدته « دعوة للقمر » قد خلب لبى ، وسحر قلبى بدفء قلمه حين قال :

أيها العشاق لا يحلو السهر

فوق شط النيل إن غاب القمر

---

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٦٢ ، ٦٣ .

فـــــــــــتـــــــــــأمــل

أيـهـــا الحـلـم الســـــعــــيــــــد

وتـــــــــعــــــــلـــــــم

أيـهـــا الـنجـم البـــــعـــــيــــــد

كـــــــــــــيــف تـــدنـــو

ثـم تـــرتــد شـــــــهـــــــابـاً

وعـــــــــــــــذابـــاً

كـــــيـف تـغــــدو قـــــمـــــراً

ثـــم تـــشـــــــــــــقـــى

لـتـــــــــشـــــــــور[1]

وللشعراء العرب المحدثين ـ من غير مصر ـ هيام بنيل القاهرة ، ونور القاهرة ، فهذا الشاعر « مبارك المغربى » الذى التقط هذا التأثير النيلى فى صياغة الأرض والناس .. وكأنما المدن هنا فى الشمال هى نفسها التى فى الجنوب ، فها هو مبارك ينظم أبياتا يقول فيها :

جـرى النيـل فـى أرض كوثرًا	فأجـرى المـودة لما جـرى
وغنـت مـع المـوج بشـطآنـه	توثـق بـين القـلوب القرى
كأنـى « بدمياط » رغـم النوى	يعانـق فـى لهـفة « عطبـرا »
وكم « بـالجـزيـرة » من منـظر	حكى سحره « المقرن » الأخضرا
حبيتنـا الطبيعـة إشـراقهـا	فقـالوا : أحبـت فتـى أسمرا

*****

وفى أرضنا .. فى ثرى الخالدين	بـراعم تسقى كئوس النـضال
عـرفـت لهـا المجـد أنشودة	تظـل تـردد عبر القنـال

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٦٦ .

لنـــا الغـد ... ما دام فينا شباب	فتـــى يـــزلـــزل شـــم الجبال
وفينـا الوفـــاء .. وفاء الشقـــيق	وبأس الأسـود .. وعزم الرجال
بهـــذا اللقـــاء الحفـــى الكريم	يتيه الجنوب ويزهو الشمال (١)

وهذه كلمـات أبدعها الشـاعر الكويتى « هاشـم السبتى » الذى هـام هو الآخر بعشقى أنا نيل مصر فكتب فقال :

ألـــم تـكـــن بـلاد كـــل الـعـــــــــــرب
والـظـل ، والـفـــــــــردوس ، كـل الآرب
ونـيلـهـــــا يســـــامـــــر العـــــشـــــاق
يهـــفـــو إليـــه الـعـــاشق المشـــتـــاق
وتـزدهر الـدنيـــا بـضـــفـــتـــيـــه
راحت تـنام فى أحـــضـــان راحـــتـيـــه
يا نـيل مـــصـــر لـيلك الـســـعـــيـــد
يـأتـى إلـيـك مـن بـعـــــــيـــــد
يأتـى مـــقـــبـــلاً طـائعـــاً وهـانـئـــاً
فى حـــضـــرة التـــاريخ يســـتـــعـــيـــد
أمـــجـــادهـا وتـرقص الـذكـــــرى
لقـــد رأيـت كل مـــا يســـرنى ... مـــاهـزنى
وفى هبوب الريح قـد أعادنى كطائر مخـتال (٢)

ووصفنى الدكتـور « عبد القادر محمـود » تارة كمدعاة للفخـر ، وأخرى لمسة للخلود وومضة من التقديس ، فها هو يقول فى قصيدته :

---

(١) ديوان القاهرة ، حزين عمر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٨ ، صـ ٧٨ .

(٢) نفس المرجع السابق صـ ٨٠ .

قــبل أن يحــبــو الزمــان غــلامــا ... ويســـوق الأحـــلام والأوهـامـــا

نحـن كنا ـ ولـم نزل ـ أعـــلامـــا ... نملأ الأرض والـوجـود ســـلامـــا

قـد صنعنا الزمـان عــامـا فـعـامـا ... وبـينـنـا الخلـود والأهـرامــــــا

هــاهنـا شــــــاطئ الخـلود وهــذا ... مـوكـب الشـمس ينشـر الأعــلامـا

تتـهـادى الآفاق فى ساحـه الكبـرى ... نشـــيـــدا مـــعطـرا بســـامـــا

النجــوم الـتى تعــشــقــهــا الـليل ... تهـــادت فى ســـاحــه أنـغـامـــا

الفـــراعين سـابحـــون مع الشـــمس ... يزفــــون ضــــوءهـا إلهـــامـــا

هاهـنا الـشـــاطئ الذى نـضـــرته ... صنعـــة اللَّه فـــتنة وابـتـســـامـا

بارك الـنيل أرضــــه وســـــقـــاها ... ريق الخـلد نفـــحـــة ومـــدامـــا

ولدت فـــتـنة وشـــبـت ضـــيـــاء ... وزكت جـنة وعـــاشـت غـــرامـــا

طاف مــــوسى هنـا وكــان وليـــدا ... حـــمل النيل مـــهـــده إعظامـــا

ومـضى الدهر خـفـقـة بعـد أخـرى ... يتـــســـاقى من أرضـنا الإلهـــامـا

وأبو الهـــول خـــاشع يرقـب الدهر ... ويطوى فـى صـمـتــه الأيامـــا (١)

وهو فى الـرمل صـــامـــد لا يبـــالى ... أتى الـليل أو مــــضى أو قــــامـــا

يســـمع الـغـــيـب لحنه ســـاحـــر ... النجوى ويطوى الأحقاب عاما فعاما

---

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٨٢ .

النيل يتمرغ فى أحضان الأدب الشعبى

توقف النيل عن البوح بالدرر المكنونة بداخله من أشعار أذابت جرحه الغائر منذ سنين ، عندئذ تقدم منه شيخ عجوز يتوكأ على عصاه وقال : « يا أمير الوادى يابحر النيل [1] أطلب منك أن تُسمعنا بعضًا من الأغانى الشعبية والأمثال ، وما شابه ذلك التى قيلت فى فضلك وما زالت عالقة بذاكرتك ومحفورة بداخلك ؟

هش وبش النيل للعجوز السائل وقال : لك ما طلبت ، سوف أتقيأها لكم شهدًا على صحف من ذهب ، فهل تصغون إلىَّ ، فلما قالوا : اللهم نعم ٠٠ قال النهر : قالت الدكتورة : « نعمات أحمد فؤاد « فى (النيل فى الأغانى الشعبية) : وهناك منظر غريب سجله الأدب الشعبى على لسان سيدة مصرية هى : الست حنيفة مرات البيه زاهر .

اللى أحسن م الفضة والجواهر
وليه أميره وما عونها طاهر
لما حبت من مصر قالت ليه غيه
أقعد فى السراية اللى ع الباجورية
عشان أشوف المراكب اللى فايته والمعدية
وهية ست مهش موجوده ولا فى المنوفية
جالها الحاج حسن أبو عبية
وقال لها أما أشور عليكى شوره يا وليه
أما أقول لك وطاوعى قولى
نفرين يزرعوا الأرض وأعمل عليهم خولى
قال لها كلها أيام وتفوت
يلا نعجل بقى ونكتب الشروط
حسن خد البهايم ورمح رمح

---

(١) النيل فى الأدب الشعبى ، دائما ما يُسمى البحر ، حتى ولو كان موضوع قولهم تُرعة مشتقة من تُرعة ، أو مجرى من مجارى النيل ، والقول : إن الأدب الشعبى لا يعترف أبدًا بلفظة النهر .

وقـــام بـدرى وخـــضـــر القـــمح

القـــمح طلع وصــيــتــه لف الأقـــاليم

وخــد التـــقـــاوى وراح بدر البـــرســيم

أخـــضــرت الأرض وبقـــيت مـليــحـــه

وســـقـــاهـا حـــسن من مـــيــة الـطريحـــة

غـــرق منهـــا فـــردتـين على سكتنا

قـام حـــسن ونطل علـيـهم بالصــفـيــحـة (١)

أما عن ما جـمعه « ما سبـيرو » عندما أدلى بدلوه فى مصر الـعليا ، هذه الأغنية التى تغنى للعروس فى حفل زفافها ، والتى تقول :

شلبـاية الـبـحـر يا ليلة الدخلة عــجـبـتينى

مـــدى دلالـك على الابحـــار عـــدينى

عـــديت دلالـى على الابحـــار عـــديتك

لو كــان خـشــيــمى قليله كنت زجـيــتك

لو كـــان حـــديدى رغـيـف كنت غـــديتك

لو كـان صبـــاعى سجـــاره كنت كـيـفــتك

بعـــينـى رأيت الـســـمك بيـــصـلى

فـــروجنـا يخـــرط بـصلـى ويتـــجـلى

وحـــمـــا منـا يرمى مـــحـــارم تـلى

يـا ريـس الـوابور يـا عـــــشــــملى

حل الـقلـوع خللـى الخـــواجـــه يدلـلى

وبعـــينى رأيت عـــريسنا نـزل من غـــرفـــتــه

عـــمـــال يحـــدث فى الأمـــيــره عـمـــتــه

صـــدر الـعـــروســـه كم عـــجب يا لـلى

(١) النيل فى الأدب الشعبى ، د. نعمات أحمد فؤاد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٣ ، صـ ١٥ ، ١٦ .

يسكت النيل هنيهة ، ثم ينظر إلى الأهلين ويقول : لأنى أكبر مظاهر الطبيعة فى مصر ، ولأن جناحى (ضفتى النيل) تتسعان لجل الأحبة ، ولأنهم يعلمون علم اليقين أننى لن أستغل البتة متعتهم بالجلوس إلى جوارى فأتقاضى منهم أجرًا ، لذا ترونى أبناء مصر ملتقى الحاجات ، وحصن الأحبة ، حيث أنهم عندما يقصدونى يظنون بعقولهم الحالمة أنهم فى مأمن من أعين الرقباء ، وألسنة الخبثاء ، ولعل هذه الأبيات التى ألقيها على مسامعكم الآن تحكى ما فضفضت به إليكم ، تقول الأبيات :

عجبى على حليوه — فـي المركب معديه
طلبت منه الوصال — جال دا أنتا بلديه
جلت لو أنا بلديك — ومجبض أبوك ميه
جال إن كان كلام — جد روح لأبويا العشيه
أطلب منه الوصال — وأديهم له حمر نجديه
وأنا أفرجك ع الخوخ — والتفاح والباجى عنبيه
إن كنت نصرانى ويهودى — اسمك على ديه(١)

وللحق أن الفنان الشعبى مملوء القلب والنفس بعشقى أنا النيل ، فأنا لا أبعد عن خياله إذا تغزل ، أو وصف ، أو عشق ، فها هو يقف على ضفافى وينشد فيقول :

يا بو سيايل — يا بحر النيل
فرعون بناك — وممشى وخلاك

وهذه ثمار التفاح التى جمعها (bouriant)

أصل الحكاية جا أوان البطيخ
لما ظهر وملا جميع الأقطار
وجا عليه النيل وبلغ رشده
وأخضر مداده وزاد فى النوار
وربعت منه الخلايق تمه

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٢٩ .

برلسى مـــالـه نظيـــر يا حـــضـــار

لما فـــــرغ راح المخــــــاذن كـلـه

كـان البلح الأحمـر نـزل على القـبـان

فى الحـــال أتـى واحـد وخـدله جنبـــه

فـــرش بهـــا جـوا البلد فى دكــان [1]

بدا الاعـيـاء على مـلامح النيل ، إلا أنـه أصـر إصرار العابـدين أن يستكمل الحديث عن الأمـثال ، فلعله حين يفعل ذلك يكون قد بذر السعادة فى قلوب محبيه الذين تجمـعوا حوله وأخـذوا يحثـونه على استكمال الحـديث إليهم ، فلمـا رأى النهر منهم ذلك دبت فـيه العـافيـة مرة أخـرى بعد أن خـارت وقال : « صنعت فـيضًا من الأمثلة، استوعبتها العقول ، ورددتها الألسنة ، وتوارثتها الأجيال ، فهى أحيانًا عبارات وألفـاظ ، وأخرى هى الحكمـة ، ومن هذه الأمثلة الـتى تصفنى تارة بالنيل ، وأخـرى بالبحر » :

(إن جـاك الـنيل طوفـان خـد ابنك تحـت رجليك)

(ادينـى عـــمـــر وارمـــينى البـــحـــر)

(ارمـــيــه البـــحـر يـطلع وفـى بقـــه ســمـكه)

(يعـنى هو البـحـــر هـيـــجـرى مـــقـــبل)

(البـــحـــر مـــا يتـــعكرش من تـرعـــه)

(عـــمـــر التـــشـــفـــيط مـــا يملاش قـــرب)

(العـــونة يـا فـلاحـين قـــال من كل بلـد راجل)

(لاخير فى زاد يجى مشحوط ولانيل يجى فى توت)

(مـــا يموت ع الســـد إلا قليل الـفـــلاحـــة)

---

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٤٢ ،

زى غـز الجيـزة تملى السجادة ع البحر)

(حلينا القلوع وأرسينا وأصبحنا على ما أمسينا)

(إيش جاب التين للتنين ، وإيش جاب الترعة للبحر الكبير ، وإيش جاب العبد لسيده ، آل طلعه ولده طلعه)

(البحر غربال الخايبة)

(بعره ويقاوح التيار)

(كل قنايه مدايقه بميتها)

(الميه فى كعب البهيم)

(يعوم ويحرس ثيابه)

(بير تشرب منه ما ترميش فيه حجر)

(زى الرهريط لا يبنى ولايسد خروق)

(الريس فى حساب والنوتى فى حسا ب)

(زى المراكبيه ما يفتكروش ربنا إلا وقت الغرق)

(راكب بلاش وينا غش مرات الريس)

توقف النيل عن الكلام ، وأمسك برأسه ، وخرجت من فيه زفرة ألم سمعها الأهلون الذين أدركوا من فورهم أن الاجهاد قد أصاب سيد الأنهار ، فانصرفوا تاركين ضفافه وهم يلوحون له بأيدهم ، وهو يلوح لهم ويؤكد عليهم أنه فى انتظار هم فى الغد و إياهم والتأخير الذى يؤلمه كثيراً ٠٠

ووعـــد النيـــــل

أقبل الليل منذ سويعات إلا أن سواده الدامس تلاشى مع نور القاهرة المتلالـــئ المنبعث من مصابيح النيل بالأعمدة وفى كل مكان ٠

والقـمر المخـمـور يتراقص وهو يـتوسط السـمـاء من سحـر حـديث النهـر مع الأهلين ، وإذا بالقـمر المخـمـور ينفق فى هذه الليلة من رصـيد ضـوء أيام أخر ، فـإذا بالطيور الساعـية تصدر من أعشاشهـا وتحلق فوق صفحة النيل الراقـراقة ، واذا بخوار البـقر يُسـمع من قريب ، وإذا بالـزروع والورد تنضو من عليـها ثـياب الكسل الليليـة وتستبدلها بثـياب النشاط الصباحية ٠٠ وما هو بإسـراف القمر الذى جمع كل أطراف الحياة علـــى ضفـتى النيل النهر ، لكنه الحب الذى يغمر أجسامـهم من منبت الشعر إلى أخمص القدم ٠

وتعالت الأصـوات من كل حدب وصوب تطالب النيل فى حمـيمية أن تـرافقه الرحلة حتى المنبع وتعود أدراجها معه مرة أخرى حتى المصب ليرى الجميع رأى العين كيف يـتصبب الـنيل عرقـاً وهو يصارع الأهوال الجـسام فيـجند لهـا ، وكيف يجـتاز المتـاريس الصلدة وثبـا تارة ، وأخرى وهو يحـبـو فى رشاقـة ، وكـيف تضعف قـوته وتخـور حتـى لتـخفت نبضاته ، إلا أنه سرعـان ما يضع الضعف جانبـا ويأخذ بزمام القوة والشبـاب من جديد ، ويظل النهر فى سيره بين القـوة والضعف حتى يصل إلى المحطة الأخيرة بمصر وهو يلهث ، إلاأنه كعـادته منذ أن كان قطرة يجئ إلى المحروسة وهو يحمل الخير الوفير بين كفيه ٠

التمعت عينا النيل من الفرحـة وقال للأهلين فى ود : «.يا أهل مصر أحبائى فى كل العصور ٠٠ أعلم أن حـبكم لى سوف يبقى بقاء الدهر ، كمـا أعلم أن بقائى ممتد في طول البلاد المصرية حتى تقوم الساعة ، لذا أرى أن تتكرر الرحلة مادمتم أنتم ومـا دمت أنا فـيكم ، فـإن كنت أمـدكم بالحيـاة والنمـاء بإذن الله فـلأنكم خلفـاء الله فى الأرض ، فإذا فـــى النهاية بالوسيلة تصل للغاية فتبتل العروق وتدب فيها الحياة » ؟!

وعاد أبناء مصر إلى دورهم والسعادة تغمر قلوبهم وتنطق بها وجوههم ، أما هؤلاء الذين وقع عليهم اختيار مرافقة النيل بداية الرحلة فباتوا ساهرين يتوخون قدوم الفجر وهى لحظة الانطلاق ٠

البواخر تسير والآذان تتسمع

وجاء الفجر بوضائته وقسماته ، وتحركت البواخر تحمل رفاق النهر ٠٠ وبينا البواخر تمخر عباب الماء ، قال النيل والرفاق تسمع : « أنا أطول أنهار العالم بلا فخر [1] .. سكت النهر هنيهة ثم قال مرة أخرى : « لكنى لست بأكثرها ماء ، ولا أعمقها ، إلا أنى أخذت من الشهرة والذيوع ما لم يأخذه نهر غيرى ، حتى هذا النهر الذى يبلغ غوره كيلو متراً ، والنهر الذى بلغ عرضه حوالى عشرة كيلومترات ، لم يأخذ كل منهما حظه من الشهرة والذيوع كما أخذت أنا نهر النيل ٠

أجوب الصحارى والفلوات والسعادة تغمرنى ، ورغم ما أبدده فى شبابى مازالت سواعدى قوية ، إلا أنكم تجدونى مهولاً فى مصبى ، ورغم أن طولى سدس محيط الأرض ، إلاأنكم ترونى دائما أبسط الأنهار شكلاً ، فأنا أجرى من الجنوب إلى الشمال محدثا عطفة واحدة تصل إلى أربعمائة كيلو متر من طولى الذى يربو عن الستة آلاف كيلو متر ، ويقع مصبى ومنبعى على درجة واحدة من الطول تقريبًا [٢] .

* * * * *

(١) يبلغ طول النهر ٦٦٩٠ كيلو متر ، ويحسب طوله من نهر الكاجيرا إلى البحر المتوسط .

(٢) النيل حياة نهر . إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٧، صـ ١٤ .

الفصل الثانى

الرحلة

وبينما البواخر تسير وهى تعانق صفحة الماء ، سمع الرفاق صوتًا خفيضًا عذبًا كأنه صادر من جوف النهر يقول : « يا نيل مصر يا بهى الطلعة إلى من تدين بالولاء » ؟

بلا تردد قال النيل : « إنما أدين بالولاء لكل من مدنى بالماء الذى يسرى فى عروقى، فلما سأل من يقصد قال : « أقصد الهضبة الاستوائية المطيرة التى يمر بها خط الاستواء ، والتى تمدنى بـ ١٥٪ من مائى ، يصمت النيل قليلاً ثم يقول مرة أخرى فى امتعاض : « للأسف تهدر كمية كبيرة من ماء هذه الهضبة فى بحر الجبل وهى فى طريقها إلى مصر ، هذا بالاضافة إلى ٥٠٪ من مياه هذه الهضبة يصب فى النيل الأزرق » ٠

كما أدين بالفضل للهضبة الأثيوبية التى يخرج منها النيل الأزرق ، والتى تعطينى ٨٥٪ من مائى ٠

ورغم الأمطار الهائلة التى تسقط على بحر الغزال والتى تبلغ حوالى ٤٠٠٠ مليار متر مكعب ، إلا أنى أدين له بالفضل على النصف مليون متر مكعب فقط الذى يمدنى به فى العام ٠

يتوقف النيل عن الكلام وتصدر منه ضحكة يقول بعدها : « صدق من قال : وهل يستطيع الإنسان أن يقبض بكلتا يديه على الماء ؟ بالطبع لا ٠٠ كذلك أنا وبحيرة فكتوريا » ٠٠ فى دهشة يأتى إلى مسامع النهر من يقول له كيف ؟ ٠٠ آنذاك يقول النيل فى ثقة : يدخل بحيرة فكتوريا التى سُميت بهذا الاسم نسبة إلى الملكة فيكتوريا التى حكمت المملكة المتحدة فترة من الزمن أنهار كثيرة مثل نهر الكاجيرا الذى يبدأ قياس طولى من عنده ، إلا أنه لا يخرج من هذه الأنهار إلا أنا ، ألم أقل لكم أنى أصنع المستحيل ، وأجتاز كل العوائق حتى أحمل إليكم قطرات الحياة ، وإن كان ما أفضفض به الآن معكم هو الحديث الشفوى الذى قد يُسعدكم ، إلا أنه لا يُسمن ولا يُغنى من جوع ، فبعد قليل سوف تشاهدون البيان العملى رأى العين ،

وقال : « فلتجلسوا ههنا على ضفاف البحيرة لتلتقطوا أنفاسكم فلما فعلوا خرج من بينهم من قال وهو يتنعم بالنظر إلي ماء البحيرة المتلألئ الرقراق : « يا ابن فيكتوريا يا عذب اللسان أين نحن الآن » .

فى مرح وبشاشة . يقول النهر : « يا أبناء مصر المحروسة نحن الآن فى الشمال الأقصى لبحيرة « ألبرت » وأنا أجوب هذه البحيرة وأنا فى طريقى إليكم » .. يتوقف النيل عن الكلام وسرعان ما يومئ إلى البحيرة ويقول مرة أخرى : « هنا وعلى بعد (٥٠٠) كيلو متر من منبعى أحب أن أرد الحق لأصحابه لذلك أقول لكم بملء فمى وبلسان صدوق أنى ههنا أعدل عن تسمينى بنيل فيكتوريا إلى التسمى بنيل ألبرت ، أتدرون لماذا ؟ لما عززت به من منبع آخر غاية فى الفيض والوفرة .. وإن كان فى قلب أحدكم ذرة شك فليذهب وينظر إلى مئات التماسيح ، وهذه الأسماك الفضية ، وإلى زرقة ماء البحيرة ، فلعل من خلال التطلع إليهم يُدرك ما خفى على عقله ، فإن رأى أن الشك ما زال يحيق به فليسرع فى الخطو ويقترب من تلك الظباء التى تغترف عسلاً منى بأفواهها وليسألها ، فلعل من صوتها ، أو من خلال حركتها ذات اليمين أو ذات الشمال يعى ما خفى عليه منذقليل .

لاحظ النيل أن الدهشة تعتلى بعض الوجوه فأدرك أن عليه توضيح الصورة أكثر ، آنذاك قال : « والفرق بين أمى الثانية بحيرة « ألبرت » « وخالتى » « كيوغا » هو : أن مائى الصافى لا يضمحل فى بطن أمى ألبرت ، كما يحدث لى فى أسفنج خالتى بحيرة كيوغا » .

يقاطع النهر أحد الفتية الذى يقول فى حماس : « يا سيد الأنهار لابد وأن هناك سببًا وراء ما يحدث لك وأنت تجوب بطن أمك ألبرت ، أليس كذلك » ؟

يشير النيل إلى الفتى السائل ويقول له فى ود : « لقد أصبت يا فتى ، نعم إنى لأشعر أن سيلاً عرمًا يجرنى بعنف ولا يتركنى إلا بعدما أجتاز طريقى » .

تلتمع عينا النهر بالدمع ويأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة فتعبس الوجوه ، وترتعد الفرائص ، وتدق القلوب وكأنها الطبول ، وتترنح الأجسام ، وتتوه العقول

وبينما الأعناق تتطاول والعيون تشاهد ما حولها فى شغف سمع الرفاق من يسأل فيقول : أوَتدرون أين أنتم الآن ؟

نظر الجميع إلى السائل وقالوا : اللهم لا يا سيد الأنهار ٠

قال النهر : « أنتم الآن أمام مساقط « ريبون » وهى منبع النيل ، وهى تقع شمال خط الاستواء رأسًا ، وأهل هذه البقعة من الأرض يُسمونها « الحجارة » ويبلغ عرضها ثلاثمائة متر ، وتحف الصخورهنا كما ترون بشجيرات وأزهار برية »[1] ٠

كان النيل ينظر إلى الأفق البعيد وهو زائغ العينين مشغول الذهن ، عندما وقف أحد الرجال ظهرانى الخلان وقال فى فخر وكأنه يتحدث عن أبيه النيل : « أوَ تعلمون أنه فى أقصى شمال بحيرة فيكتوريا يسير النيل رسول إفريقية وقلبها النابض بالحياة وهو يحمل البشائر إلى البحر البعيد »٠٠ يصمت الرجل قليلاً ويعاود حديثه مرة أخرى فيقول : « وقليل من هذه الأمواج الأولى التى ترونها الآن هى التى تصل إلى غايتها ، وليس كل ما يبلغ البحر المتوسط بعد عدة شهور لهو الصادر عن ذلك الينبوع الذى يسقط من عل ، فللحبيب النيل فى البداية ثلاثة ينابيع وبضعة روافد » ٠

تنبه النهر على مرور سرب من الطيور تُسبح ربها ، فنظر إليها وسبح معها ، ولكن كل بلغته ، ثم نظر الرفاق وقال : « وكعادة البشر منذ الآف السنين يسعون دائما لمعرفة كل ما يحيط بالحبيب من أسرار : من أين وفد ؟، من أمه ، من أبيه ، أَغنى هو أم فقير ، وبالمثل فعل معى الإنسان المصرى وغيره منذ العصور الغابرة عندما أخذ يبحث عن منبعى هنا وهناك ، ورغم أنه بلغ المجهود في البحث ، إلا أن بحثه هذا ذهب أدراج الرياح، أوَ تدرون لماذا ؟ لأن الناس قديمًا كانوا يعتقدون أنى وليد السيول كالأنهار الأخرى ، وأنى أستمد قوتى من الطود العظيم ، وظل الإنسان على هذا الزعم الخطأ إلى أن أكتشف منذ عشرات السنين أن نقطة بداية عدوى تبدأ بشلال عظيم ، وإنى ابن لأعظم بحيرة إفريقية » ٠

---

(١) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧، صـ ٢٦ .

يخرج من بين الصفوف فتى يقاطع النيل مستفسرًا فيقول : أتحب أمك البحيرة يا سيد الأنهار ؟ قال : اللهم نعم » ، قال الفتى : « إذاً فلتقص علينا بعض خبر عن أمك ؟ وكذلك كل ما يحيط بها من جيران » ؟ .

بعد ابتسامة عريضة للفتى السائل قال النيل : « أمى تُدعى بحيرة فيكتوريا وهى من حيث المساحة بحرًا أوسع من سويسرا [1] ، ولأمى قوانينها ونظمها ومخاطرها ، وكما ترون هى الجوهر ، أى فرد فى وسط القارة المفتتنة ، وهى مرآة كبيرة لشمس إفريقية يجاورها بلد رعائى هى « أوغندا التى تقع على ارتفاع (١١٠٠متر) وأوغندا جارة أمى البحيرة يسودها صيف عاطل من حر قاتل فى النهار ، ومن ضباب خانق فى الليل ، وتنعم العاصفة عليها بالنسيم بعد الظهر ، وبالريح فى المساء ، ولذلك تُعد أوغندا بلدًا مخصابًا يتورازن فيه الغيث والشمس دومًا [2] .

---

(١) النيل حياة نهر : إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ ٢٨

(٢) تتراوح درجة حرارة أوغندا على مدار السنة من ٢٠ ـ ٣٠ درجة ، وهى بلد عالية الرطوبة ، يسقط عليها المطر طوال العام .

عمالقة ما قبل التاريخ

وكما ترون ضفاف البحيرة عبارة عن حديقة من عمل الطبيعة والإنسان ذى البشرة السوداء بفعل حرارة الشمس ، وفى كل جهة من تلك الحديقة تنصب أشجار التين و السنط والجُميز ، والتى تتطاول بأعناقها ، وتتراقص بأغصانها وقطرات أخوتى الأنهار الرقراقة تُداعب أرجلها مبشرة بقدوم الصباح ٠٠ وعلى تلال أوغندا ، وبالتحديد وراء الإطار الذى يحيط بأمى البحيرة يتوارى أواخر عمالقة ما قبل التاريخ.

هتف كل الرفاق بعدما قاطعوا حديث النيل وطالبوه فى إلحاح شديد بعدما استحلفوه بأمه البحيرة ، وأبيه الشلال العظيم أن يقص عليهم قدرًا يسيرًا عن هؤلاء العمالقة قبل التحرك إلى مكان آخر ٠

أحب نهر النيل أن يختبر قلوب ونفوس الرفاق فنظر إليهم وقال لهم فى دهاء : « أوَ تحبون أن أحدثكم عن عمالقة المال ، أم عمالقة الجاه » ؟ ٠

فغرت أفواه الرفاق ، وراح بعضهم ينظر إلى البعض وعلامات الدهشة تنطق بها وجوههم ، لكنهم سرعان ما خلعوا ثياب الدهشة ، وارتدوا ثياب العقل وقالوا : « ويح النهر ؟ قد استبدل ميزانه ، وباع عقله ولسانه ، وراح يتحدث بلسان جُهلاء اليوم عبدة الدرهم والدينار ، والطين والتراب ؟ ، يا أخا نهر الكونغو ، وابن الشلال العظيم ، لوتحدثنا معك بلسان اليوم لقلنا : « إن عمالقة العلم والفكر والأدب لخير وأبقى مما ذكرت الآن لأنهم يصنعون أمجاد بلادهم بعرق عقولهم ، وعرق العقول لا تمنحه الأيام والقرون ، ولعل خير دليل أجدادنا العمالقة الذين عاشوا على ضفافك من آلاف السنين ، وشيدوا أقدم وأعرق وأجمل حضارة عرفها التاريخ حتى الآن ، أيمارى عاقل أنهم عمالقة سوف يلهج الناس اسماءهم كشهداء ، وإن لم يخروا صرعى فى ميدان حرب .. سكت الرفاق لحظات ثم قالوا مرة أخرى : « يا أمير الوادى فلتغفر لنا جرأتنا فإننا لم نقصد أن نحقر من كلامك ، بل أردنا أن نوضح الصورة قبل أن يجف اللسان ٠٠ يا ابن فيكتوريا إنما قصدنا أن تحدثنا عن عمالقة الجسم وقصار القامة كما رأيتهم » ٠

اعتلت البشاشة وجه النيل الذى قال للرفاق فى فرحة : إنما قصدت اختباركم كرفاق حتى أعلم أنواصل الرحلة سويًا ، أم نفترق ويذهب كل منا إلى وجهته .. قاطع الرفاق النيل النهر وقالوا فى سعادة : « إذًا فلتقص علينا خبر هؤلاء العمالقة » ؟

أشار النيل برأسه علامة الموافقة وبدأ الحديث فقال : « فى إفريقية وبالتحديد فى رواندا ، بوروندى حيث البيئة الاستوائية يعيش الأقزام والعمالقة » .

وهناك حقيقة تؤيدها العديد من البحوث والدراسات المكتوبة باللغة العربية تقول : إن « التوتسى » بمفردهم عمالقة إفريقية ، ولكن هناك أيضا دلائل قوية تشير إلى أن العناصر الزنجية النيلية Nilotic Negroids التى تعيش فى شرق هضبة البحيرات خاصة فى أعالى النيل فى جنوب السودان ، شمال أوغندا أيضا من العمالقة [١] .

بصمت النهر قليلاً وكأنه يستحضر المعلومات من غور عقله ، فلما يستحضرها العقل ويقذف بها إلى اللسان يقول النيل : « يعيش عمالقة إفريقية «الوا - توتسى « فى رواندا ، وبوروندى ، وهما من الدول الداخلية فى وسط إفريقية غرب هضبة البحيرات الاستوائية على الحافة الشرقية للفرع الغربى للأخدود الإفريقى العظيم .. وتعتبر بيئتا رواندا وبوروندى من أفضل البيئات التى تضم فى بيئة واحدة متشابهة ، نماذج متعددة من أشكال القامة ، فهناك « العمالقة التوتسى » ، وهناك طوال القامة « الهوتو » ، وهناك الأقزام « التوا [٢] » ، ولعل هذه النماذج تدل على أنه ليس هناك ترابط بين الظروف الجغرافية ، أو عوامل البيئة ، وبين ارتفاع القامة » [٣] .

---

(١) مجلة الدراسات الإفريقية ، العدد السابع ، ١٩٧٨ ، الوا - توتسى ، عمالقة إفريقيا ، دراسة اثنوسيوبيولوجية ، د. فاروق عبد الجواد متولى شويقه .

(٢) يستوطن أقزام التوا فى الغابات الموجودة فى غرب أوغندا .

(3) D'Hertefelt, Marcel : " The Rwanda of Rwand " In Gibbs, james L. (ed.) Peoples of Africa. New york, Holt Rinehert, 1965, p. 406.

وحول أصل وتاريخ العمالقة (الوا ـ توتسى) كثر الكلام ، وتعددت الآراء فمن هذه الآراءمن ذهب أصحابها إلى أنهم : شعب وافد إلى رواندا ، وبوروندى ورأى آخر يقول : أنهم كانوا يقطنون المنطقة الواقعة بين بحيرة ألبرت وبحر الغزال ، أو فى منطقة أعالى نهر النيل حتى حدود أثيوبيا [1] ٠٠ وهناك رأى آخر ذهب إلى أن التوتسى فرع من الباهيما (Bahima) الذين انحدروا مع الحالا ، والأثيوبيين من جد واحد من الرعاة الوافدين من آسيا ، هذا بجانب ما ذكره « كون » (Coon C.S.) وهو : أن وصول زنوج « الهوتو » إلى مرتفعات رواندا وبوروندى كان فى انتشار البانتو وتوسعهم ، أى ربما قبل عام ٥٠٠ ـ ١٠٠٠٠ م ، أما قبل ذلك فقد كانت كل المنطقة مغطاة بالغابات ومسكونة بالأقزام ، وقد نشط بعض من الهوتو بزراعة الأراضى التى تمكنوا من تنظيفها ، أما الأقزام فقد عمل بعضهم ـ الذى ظل على ضفاف بحيرة « كيفو » ـ ظل على خدمة الهوتو الذين لم يختلطوا بهم بيولوجيًا إلا فى أضيق الحدود [2] ٠

يقاطع النيل أحد الشباب الذى يقترب منه ويقول : « يا كثير الفيض والجود يا نهر النيل فلتحدثنا عن الصفات البيولوجية لعمالقة إفريقية ، فنحن لفى غاية الشوق لمعرفة هذه الصفات » ؟ ٠

فى حب ينظر النيل إلى سائله ويقول : يصنف « الوا ـ توتسى » على أنهم من المجموعة الزنجية ، ويُطلق « جولدن سبى » [3] على هذه المجموعة اسم « مجموعة الإنسان الأسود » (Black man) ويعرف أصحاب هذه المجموعة بلون البشرة ، وبنية الجسم ٠٠ ويتفاوت لون البشرة ما بين البنى إلى الأسود، وبالمثل شعر الجسم والعين ، أما شعر الرأس فهو قليل التجعيد ، وأما شعر الجسم فتوزيعة

---

(1) Halse ; F. : The Human Species, ; An Introduction to physical Anthoopology. 2nd. ed. New York, Random House, 1971, p. 335.

(٢) مجلة الدراسات الإفريقية ، العدد السابع ، ١٩٧٨ ، الوا ـ توتسى ، عمالقة إفريقيا ، دراسة اثنوسيولوجية . د. فاروق عبد الجواد متولى شويقه .

(3) Bolds by, Richard A. : Raceland races. Newyork, The Macmillan .

متناثر .. ولو نظرنا إلـــى الشفـاة وجدناها ممتـلئة مقـلوبة ، والأذن صغـيرة والرأس فـى الغالـب مستـديرة وتظهر فـــى بنيـة الجسم ، الأطراف طويلة ، وتبـدو بوضوح أكـبر من أطراف المغـوليين والكثيـر مـــن القـوقازيين ٠٠ ويتـفاوت ارتفـاع القامـة بوضوح فـى مجمـوعة الإنسـان الأسود أكـثر مـن المغـولية والقـوقازية ، فـبينمـا نجد عـمـالقـة (واتوتسى WATUSI أكثـر من ٧ أقدام) نجـــــد الأقـزام (أقـل من ٥ أقدام) ٠ (١)

ويبـدو أن أقـزام مـرتفـعـات رواندا وبوروندى الذين عـاشـوا فى الأراضى المكـشــوفة وسط الزنوج مختلفون عن أقرانهم من الأقزام الآخرين ، كما يبدو أيضا أنهم لم يختلطوا كثيرا بالتوتسى ، أو بالهـوتو ، وذلك بالاستناد إلى الصفات السلالية مثل كثرة الشعر على الجسم ، وكثرة تغضن بشرتهم ٠

يسكت النيل هنيـهة ثم يقول فى زهو وافـتخـار : « وخلاصة القـول أننا نجد أن إفريقيـا يوجد بها أطول الناس قامة ، وأقصـرهم قامة متجـاورين فى منطقة حول خط الاستواء لا تتجاوز الخط العاشر من خطوط العرض » ٠

وتحرك الرفاق يتقدمهم النيل النهر وعلامات البشر تبدو على الوجوه ، كما تبـدو عـلامات القـوة والنشاط من وقع خطواتـهم ٠٠ وفجـأة وقف النهر وأشـار إلى أعلى وقال : « ها هو المسقط الثانى مسقط « أوين » وهو كما ترون عريض كمسقط ريبون ، إلا أنــه أعمق منه مرتين » ٠

وسرعان ما أنحرف نحو الشمال من غير مجهود ، وأمامى ومن خلفــى المـــاء المرغى غير الصالح للملاحة البتـة ٠٠ وتتوارى المراعى والمروج ، كما تتوارى البيوت والأكـواخ بسبب « مـرض النوم » وتظهر الغـابة البكر التى تعـانق النهر ويعـانقهـا ، وأظل أنا والغابة العذراء نعيش كما صنعتنا يد الرحمن ٠

إلا أن الغـابة البكر لما تراني غـير عـابئ بهـا تعـود أدراجهـا والدمع يراود عـينيهـا الخضراوتين وتتركنى ألهو وألعب مع النبات المتعرش المشتبك ٠٠ إلا أنهـــا ـ لفرط حبها لى ـ تخفى عنى هذا الصراع الدامى الدائر فى الغابة بين الحيوانات بعضها وبعض ٠

(١) نفس المرجع السابق ص ٧٧ .

وأنتقل من مرحلة الطفولة لمرحلة الشباب بعد مسافة ستين كيلو مترًا بعد المنبع ، ولا أقعد مكتوف الأيدى ، معصـوب العينين ، بل أتحرك لأتعرف على أعوانى ، فأنزل مئتى متر بين المساقط والدوافع ، وأحيط ببعض جزيرات كثيرة الغابات ، وأبصر أُناسًا عُـراة أنشأوا أكواخًا لصيد السمك وتجفيفه وتدخينه [1] .

وأظل صالحًـا للملاحة مئتى كيلو متر ، ومـن هذا المكان وعند درجة العــرض الشمالية الأولى يلوح الخط الحديدى المتوجه إلى الجنوب الشرقى نحو كينيا بما لا يكاد يمسنى ، ولا يقترب من الخط الحديدى الثانى إلا عند الدرجة الثالثة عشرة الشمالية أى بعد ألفى كيلو متر » .

ينظر النيل إلى الرفاق ويقول فى خشوع : « سبحان الله ، ما النيل وبنو البشر إلا مخـلوقات اللّه ، فلمـا يبادره البـعض ماذا يقـصد ؟ يـقول النهـر : « الإنســان يزيد وزنــه وينقص ، وكذلك أنا أ زيد فــى العـرض وأنقص .. انظروا كيف أن عرضى هنــا لا يتحمل باخرة ، لكن سرعـان ما يتسع مجراى شيئًا فشيـئًا ، فهذه الغابة التى ترونها عـلى مرمــى البـصر تـفرض عـلىَّ حدودًا لا تتجـاوز الستـمائة مـترًا ، إلا أنى بعدها أنبسط على كيلو مترات ، ويغيض مـائى حتى ليخشى ضياعى لهبوطى فى هذا الوادى الأسفنجى ، لكن كلما تقدمت تمطيت وصار عمقى ثلاثة أمتار » .

وأخـذ الرفـاق يغـذون فى السيـر والنيل من أمـامـهم يشـرح لهم نقـاط قـوته وضعفــه ، وعندما يصلـون إلى بحيرة « كيوغا » يتوقفـون ويسـأل أحدهم فى عجلة فيقول : « مــا هذا المتسع الكبير يا نهرنا » ؟

يجيب النهر السائل بقوله : هذه المساحة الواسعة من الماء الوحل تُسمى بحيرة « كيوغـا » وهى مستنقع يحف البردى من حـوله ، وأجتازه أنا فى مائة كـيلو متر ، وفى أقصى طرف البحـيرة الغربى أترك بحيرة كيـوغا وينضم إلىَّ أخى الصغير نهـر كافو ،

(١) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ٣٦ .

حيث يجود بحياته ويلفظ أنفاسه الأخيرة هناك ، أما أنا النيل فأتجه ناحية الشمال مع انحدار محسوس » .

يضحك النيل فتتطاول الأعناق تنظر إليه فى غبطة وهو يقول : « وفى مغامرة جريئة جديدة منى أنعطف بغتة وبلا مقدمات ناحية الشمال للمرة الأولى وأسير نحو الغرب ٠٠ وتشتد عزيمتى وقوتى وأثور ثورة كبيرة عندما ألاقى الأرض الصخرية ، حتى ليرانى الناظر أصير سيلاً منيعًا كما كنت فى صباى حتى ليضيق مجراى ، ويعمق مسيلى ٠

ويأتى يوم الإمتحان العصيب وعلامته ظهور الفيلق الإفريقى والبقعة الصخرية التى تتجمع فيها كتل الصوان ، وأهبط من ارتفاع أربعين مترًا ويضيق عرضى حتى لايتجاوز ستة أمتار للمرة الأولى ٠٠ ويؤدى مصب البحر الاستوائي الداخلى إلى هذا المسقط الذى يتدهور به النهر في ثوان معدودة ٠

ويبحث النيل عن طبيعته الفياضة فلا يجدها إلا فى مساقط « مرشسن » التى تُعد أهم ما فى جريه ٠٠ وسُرعان ما أتعرض لأمر هائل ، فها أنا أهبط من منطقة إفريقية إلى أخرى وتحولنى مغامرة الشباب الجامحة بداخلى تحويلاً تامًا ، ، حتى لترون جسرًا خالدًا يصل الماء بالسماء ،مع رؤية قوس قزح والنور ينعكس فى كل مكان على الألوف من هذه الأحجارالبلورية الشفافة ٠٠ ويتسع نهركم بالتدريج ، وفى مساقط مرشسن ، كما تبصرون الألوف من حيوانات بقر الماء والتماسيح ، وتلك المياه التى تبدى نفسها للشمس والتى تعتبر حمامات جبارة تحمى الموجودات المائية من كل خطر [١] .

صارت الأرض تَميُد من تحت الأقدام ، وبلغت روح الرفاق الحناجر من شدة التعب ، إلا أنهم يصرون على السير لمشاهدة الطبيعة الخلابة من حولهم ٠٠ شعر النيل أن الإرهاق وصل إلى ذروته وبدا واضحًا على وجوه الرفاق ، فرق قلب النيل لهم

---

(١) نفس المرجع السابق ، صـ ٣٩ .

وقال : « فلتجلسوا ههنا على ضفاف البحيرة لتلتقطوا أنفاسكم فلما فعلوا خرج من بينهم من قال وهو يتنعم بالنظر إلي ماء البحيرة المتلألئ الرقراق : « يا ابن فيكتوريا يا عذب اللسان أين نحن الآن » .

فى مرح وبشاشة . يقول النهر : « يا أبناء مصر المحروسة نحن الآن فى الشمال الأقصى لبحيرة « ألبرت » وأنا أجوب هذه البحيرة وأنا فى طريقى إليكم » ٠٠ يتوقف النيل عن الكلام وسرعان ما يومئ إلى البحيرة ويقول مرة أخرى : « هنا وعلى بعد (٥٠٠) كيلو متر من منبعى أحب أن أرد الحق لأصحابه لذلك أقول لكم بملء فمى وبلسان صدوق أنى ههنا أعدل عن تسمينى بنيل فيكتوريا إلى التسمى بنيل ألبرت ، أتدرون لماذا ؟ لما عززت به من منبع آخر غاية فى الفيض والوفرة ٠٠ وإن كان فى قلب أحدكم ذرة شك فليذهب وينظر إلى مئات التماسيح ، وهذه الأسماك الفضية ، وإلى زرقة ماء البحيرة ، فلعل من خلال التطلع إليهم يُدرك ما خفى على عقله ، فإن رأى أن الشك ما زال يحيق به فليسرع فى الخطو ويقترب من تلك الظباء التى تغترف عسلاً منى بأفواهها وليسألها ، فلعل من صوتها ، أو من خلال حركتها ذات اليمين أو ذات الشمال يعى ما خفى عليه منذقليل ٠

لاحظ النيل أن الدهشة تعتلى بعض الوجوه فأدرك أن عليه توضيح الصورة أكثر ، آنذاك قال : « والفرق بين أمى الثانية بحيرة « ألبرت » « وخالتى » « كيوغا » هو : أن مائى الصافى لا يضمحل فى بطن أمى ألبرت ، كما يحدث لى فى أسفنج خالتى بحيرة كيوغا » .

يقاطع النهر أحد الفتية الذى يقول فى حماس : « يا سيد الأنهار لابد وأن هناك سببًا وراء ما يحدث لك وأنت تجوب بطن أمك ألبرت ، أليس كذلك » ؟

يشير النيل إلى الفتى السائل ويقول له فى ود : « لقد أصبت يا فتى ، نعم إنى لأشعر أن سيلاً عرمًا يجرنى بعنف ولا يتركنى إلا بعدما أجتاز طريقى » .

تلتمع عينا النهر بالدمع ويأخذ يتمتم بكلمات غير مفهومة فتعبس الوجوه ، وترتعد الفرائص ، وتدق القلوب وكأنها الطبول ، وتترنح الأجسام ، وتتوه العقول

التى تظن أنه الخفخاف الذى يسبق الموت ، وتتحرك الأقدام وتربت جميعها برفق على جسم النهر ، وتـــروح الألسنة تسأل فى خوف وفزع فتقول : « ماذا دهاك يا أمير الوادى ، أوَ تشعر بألم » ؟ ! ٠

يبتسم النيل والدمع يتقاطر من عينيه ويقول للرفاق بصوت تخاله صـــادراً من غوره : « أيستطيع أحدكم أن يحسب عدد خطوه فى الحياة ؟ قالوا : اللهم لا ، وكيف نحسب ما علمه عند ربنا سبحانه وتعالى » .

قال آمنت بالله ربى وربكم ورب كل شئ ٠٠ آنذاك يبادرهم النهر بالسؤال الثانى فيقول : « كم هى المدة التى يستغرقها بعضكم أو كلكم دون أن يرى صديقه الـذى انتزعته الحياة فى الكبر بعيداً عنه » ؟

يضحك الجميع ، ثم يتوقفون ويقولون فى جد : « هى الشهور التى قد تمتد إلى السنين » ، حينذاك يقاطعهم النهر قائلاً : « إذاً تعالوا معى لتعرفوا فيما حزنى الشديد » ٠٠ سار النيل ، وسار الرفاق من خلفه ، وعند الغرب البعيد سألهم فقال : « ما هذا » ؟ قالوا: « اللهم نـهر ٠٠قال : « هذا النهر الكبير هو أخى « نهر الكونغو» وكما ترون هو لا يرانى وأنا لا أراه فهو يتجه إلى الغرب ، وأنا أجرى إلى الشمال ، وهذه هى الحياة التى يسعى فيها المخلوق لا كما يبغى ويرسم لنفسه، بل كما قدر اللّه له أن يسير » .

أحب النيل أن يضفى السعادة فى قلوب الرفاق بعد الذى ألم بها من حزن وفزع فنظر إليهم وقال لهم فى فرح : « لعلكم الآن تريدون معرفة ما الذى يُغذى المنبع الثانى الذى هو (حوض بحيرة ألبرت العظيم) ؟ فلما هتف الرفاق وقالوا : « نعم إن ما يجيش بقلوبنا ، ويدور بعقولنا لهو ما تفوهت به إلينا الآن ، فقل ونحن نسمع إليك ولا نقاطعك » .

بصوت عذب يقول النهر : « عند انفتاق وجه القارة الإفريقية ظهرت فرجة تمتد من « روديسيا » إلى «وادى الأردن » مشتملة على البحر الأحمر ، وما فتأت أن انفجرت النار فى جوف الأرض التى ألقت كتلاً عظيمة وجعلت منها جبالاً واسعة

الفوهات ، وفتحت على سفح هذه البراكين ذلك الوادى التى تكونت فيه البحيرات ، وجـرت منـه الأنهـار ، وانقسمت الفرجة إلى ذراعين في جنوب حوض النيل ، فاتجهت الذراع الشرقية إلى كينيا وكونت جبال « الكيليمنجارو » ، أما الذراع الغربية فكونت ثلاث بحيرات فى غرب بحيرة فيكتوريا وتمثل هذه البحيرات انخفاض بين الذراعين » [1] .

النيل يدافع عن إفريقية

يدارى النيل دمعة حزينة وهو يقول للرفاق : « من المخجل أن أرتبط أنـا النيل الإفريقى لحمًا ودمًا ، وقلبًا وقالبًا ببحيرات أربعة كبرى (فيكتوريا ، ألبرت ، وإدوارد، جورج) مسماة باسماء ملوك من الإنجليز، فى حين ترتبط البحيرتان الموجودتان فى الكونغو باسمين إفريقيين هما : كيفو ، وتنغانيقا » ٠٠ وعندما تسأل إحدى السيدات النهر فتقول : وماذا تعنى كلماتك هذه » ؟ ٠٠

يجيب النهـر : « تعنى أن الدول الإفريقية ما زالت تقع تحت وطأة الإستعمار ومازال السوار الحديدى الضاغط يحيط حول الرقاب والمعاصم ، وإنى لآمل أن تطلق أسماء أربعة علماءأفارقة على هذه البحيرات إن كنتم فاعلين ٠٠لم تهدأ ثائرة هذا النهر إلا عندما وعده الرفاق أنهم سوف يبذلون كل ما يملكون من جهد لتغيير هذا الوضع الذى لا يليق بالنهر الخالد ، ولا بدول القارة الإفريقية » .

* * * * *

(١) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ ٤٣ ، ٤٤ .

اقتـرب شاب من النهـر وقال فى عـجلة بلا مقـدمات : « أصحـيح هــذا الذى يعتقده الناس ، وهل هو الصدق ما يقولونه » ؟ ٠

ابتسم النيل وقال للشاب فى هــدوء : و« مـاذا يعتقد الناس ؟ وماذا يقــولـون يا ترى » ؟.

تنبه الشاب وأدرك أن سؤاله عاد إليه مرة أخـرى ، وسرعان ما تخلى عن تَسرُعه وقـال : « يعتـقـدون أن مصـدر أمطار حـوض النيل هو جنوب المحـيط الأطلنطى ، ويقولون أن ثمة صـراع دائم متوازن شرعى يدور بين البحـر والأرض بأمر اللّه ينجم عنه التـبخـر ، ونتيـجة لهـذه الدورة الربانيـة تسقط الأمطار الـغزيرة التى تتكون منهـا الأنهار التى تجرى إلى البحر ٠٠ وهذا يدعونا إلى القول بأنه إذا كان النهر أبو التُرعة ، فالبحر أبو النهر وإن اختلف طعم الماء فى مجريهما » ٠

فى خشـوع يقول النيل النهـر : « نعم ، هذا ما يحـدث بالفعل ولا دخل لنا فـيه لأنه مــن قبل اللّـه سبحانه وتـعالى » ٠٠ يصمت النيل هنيـهة وكأنه يتـذكر شيـئًا ثم يقول : « وبمناســبة التـبخر أحب أن أبوح بسر خاص بأمى فيكتـوريا قد يحزنكم أن تسمعوه ، إلا أنى سوف لا أكتمكم إياه » ٠٠ فلما يرى النيل أن الرقاب قد تطاولت ، والوجوه قـد أعتلتها الدهـشة يقول : « لا يزيد عمق أمى فـيكتوريا عن تسعين مـتراً ، ورغم أن العمق يبدو كبيراً إلا أنه من المؤسف أن الفاقد من الماء نتـيجة التبخر أكثر مما يأتى البحيرة ، وهذا النقص المستمر هو ما يعتبره مهندسو النيل من الأمور الخطيرة » .

تقاطع النيل فـتاة وتبادره بالسؤال وهو مـازال يلتقط أنفاســه المحـبوــة بداخله فتقول : « أيرجع السبب في ذلك إلى البشر » ؟ ٠

يجيب النيل الفـتاة فتـخرج الكلمات من فيـه متقطعـة تتموج بكل معـانى الحزن وهـــو يقـول : « لا أيتهـا الفـتاة الجـميلة ، لادخل لـلإنسان هذه المرة بما يحـدث لأمى فيكتوريا مــن نقص فى ثروتها المائية ، أتعرفون لماذا ؟ ! لأن لجوها ونظام ريحها شكلاً خاصًا بــها تفرضه عليها عوامل إقليمها الأساسية التى تقوم على تناوب الريح البريـــة

والبحرية ، وعلى كثرة الزوابع ، وارتفاع حرارة الماء إلى ٢٦ درجة ، وعلى عدم وجود أشهر جفاف ، وعلى ما يصيب البحيرة عظيمة الغور والاتساع من تبخر » ٠

ورغم أن لأمى بحيرة فيكتوريا سواعد [١] يأتين إليها من جهات ثلاث ، إلا أنه ليس لها سوى منفذ واحد هو منبع النيل فى شمالها بالقرب من جنجا ٠٠ أما فى الشمال الشرقى فتنزل السيول بانحدار قوى من « إلغون » ، هذا البركان المتروى الذى يبلغ ارتفاعه أربعة آلاف متر ٠٠ ولما كنت لاأنكر فضل أحد علىَّ أو على أمى فأقول بلسان صدوق : « إن هذه السيول تمد أمى بماء غزير » .

ومن سواعد أمى فيكتوريا الخمس عشرة ترى واحدة مهمة كان يُطلق عليها اسم النيل ، وسبب هذا الاسم من منطلق الجغرافيين : يذهب إلى أن أهم ساعد لأى بحيرة هو النهر الذى يخرج منها ، وأن يرى ذلك من أمر البحيرات الكبرى فضلاً عن أمر صغرى البحيرات التى يمكن قياس جريانها ورؤيته من بعيد أيضًا ، وإذا كان الرافد الغربى هو أنا النيل الذى وجب علىَّ أن أجد أقرب مخرج لى على مسافة ٣٥٠ ك٠ م ، والبرهان الوحيد الذى يذكر تأييدًا لهذا الافتراض هو أن السكان الأصليين يسمونه (أم نهر جنجا) [٢] ٠

تحرك النيل تاركاً المنبع الثانى وهو يسير بخطى الواثق ، ومن حوله يسير الرفاق والسعادة تعتلى وجوههم وهم يستمعون إلى النهر وهو يتحدث إليهم فيقول : « وبينما أنا أغادر المنبع الثانى أشعر وكأننى نهر كبير جديد ، وسُرعان ما تدب العافية فى جسدى فإذا أنا عملاق ، بل مجموعة من العمالقة وأنا أتجاوز بقوة تلك الكثبان الكبيرة التى تحاول منعى من التقدم ٠٠ لكن سُرعان ما تلقى الكثبان بسلاحها ، وتنكس رؤوسها وتدعنى أسير ، فلما أصل إلى الغرب أبصر آجامًا واسعة فى أراضى الكونغو ، فعندما أصل إلى الشرق أشاهد سهوبًا صفرًا ذات سنط مغروس فى أرضها ، ولا يكاد مجراى يتوطد فيشتد بعد خمسة عشر كيلو مترًا فى مجرى عريض هادئ يسير فى حرية مطلقة » .

(١) السواعد : مجارى الماء إلى البحر ، أو إلى النهر .

(٢) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ ٤٨ .

وترونى ـ أحفاد العظماء أبناء مصر المحروسة ـ حينما يتسع مجرى أتحول إلــى بحيرات صغيرة يحيط بها القصب ، مع زاوية من غابة ظليلة توجد وراءها ٠٠ وفجاة يضرب النيل يداً بيد وهو يضحك ويشير إلى الرفاق بسبابته أن ينظروا ، فعندما ينظرون يشاهدون مجموعة من الرجال عراة تمامًا من الملابس يجيئون إلــى شاطئ الــماء فيضعون ما يحملونه من جلود ورماح ويغتسلون بالـماء ، ثم يخرجون فيأتون بحركات لايدرى الناظر إليهم أهى حركات بهلوانية ، أم هى حركات كهنوتية يتبركون بها ٠٠ وما هى إلا الدقائق أو تكاد وتأتى مجموعة من الفتيات بزى عجيب هو عبارة عن عشرات من أوراق الشجر الرطبة تتدلى من حبل تضعه كل من ورائها فيبدو الحبل وكأنه ريش النعام ٠

ينظر النهر إلى الرفاق وبعين دا معة ولسان حزين يقول : « ولا أدرى أجاء هؤلاء القوم الذين يُطلق عليهم « المادى »[1] من كوكب آخر غير كوكب الأرض ؟! أم هم من إفريقية ؟ وإن كانوا من سكان إفريقية ، فمسئولية من يعيشون عيشة هى أشبه بعيشــة القردة وأنا أسير من بينهم كما أسير بين إخوانهم فى الدول الأخرى التى أنجبت على ضفافى العلماء والأفذاذ ، أوَ ليس ما يحدث لهؤلاء من جهل مسئولية العلماء والأفذاذ ، ومن قبلهم الحكام الذين فضلوا النظر إلى تحت أقدامهم عن النظر إلى الأمام » ٠

---

(١) فى إفريقية كثير من الرجال يتركون لنسائهم الحرية الكبيرة فى عالم الغرام ، لا فى حقل العمل ، وهم لا يضربوهن إلا عند رداءة الطحن ، لا بسبب عشاقهن ، ولا يحق للرجل فى البونغو أن يتزوج أكثر من ثلاث نسوة ، وإذا وضعت فتاة ولداً للمادى وجب عليه أن يتزوجها ، والمرأة فى البانجو تشترى من يزنى بهابجرة جعة .. ويحمل الشلك بعد وضع الولد الأول نساءهم على بيان اسماء من كانوا يعاشرونهن ، فيلزم كل عاشق بتقديم بقرة تكفيرا عن خطاياه ، وثأرا للشرف ، وإذا كانت للمرأة عدة عشاق وكانت جرئية أخذت قبضة من التراب ونثرتها فى الهواء وقالت وهى تصرخ : (هذا هو عدد من كان منهم) وهنالك يشتم الزوج أمها معاقباً على سوء تربيتها لها .

فجـأة يتوقف النيل عن الكلام وينفجـر فى البكاء فيبـكى لبكائه الرفاق دون أن يبادروه بالسؤال ، إلا أحد الفتيان تسلل من وسطهم ووقف أمام البكاء وسأله فى لهفة فـقـال : « ويح هؤلاء العـراة الجُـهـلاء الذين مـا أن رآهم أبو سـيـاييل بحـر النيل إلا وبكـــى بكاءً ، ودمع دمعاً انهمر منه ماء يملأ نُهيرًا » ؟ ٠

بقلب عـقول وبلسـان سؤول يعـقب النهر على الفـتـى فيـقول : « يا فـتى ليس الجهل هو هـــذا الذى يصوره لك عقلك الصغيـر ، ولا هو كما أوهموك فعلموك أنه الحرمـان من التعليم ، فلمـا يشاهد النيل أن الفتى اعـتلت وجهـه الدهشة ، وراح ينظر إليه تارة ، وإلى الرفاق تارة أخرى وهو حائر لا يستطيع النطق ببنت شفة ، آنذاك يبش له النهر ويسأله قائلاً : « وبماذا تسمى هؤلاء الذين ينفقون أموالهم على الغانيات حتى آخر درهم ، ثم يولولـــون كالنساء ، بل يَنعـبُون كـالغربان بعد فـوات الأوان ؟ وماذا تُطلق على مـن يخـونون أوطانــهم فـيـدفـعـون بأسـرارها إلى العـدو المتـرقب على الأطراف ؟ ومـاذا تُطلق على هــؤلاء الذين ينفـقون خـارج أوطانهم الملايين من أجل أن يقال إنهم أهل الجـود والكرم ، والحقـيقة أنهم خلفـوا وراءهم فى أوطانهم المرضى والجياع وراحوا يبحثون عن مجد زائل » ؟ ٠

نكس الفتى رأسه وراح جل الرفاق ينظرون إليه وهو يعقب إليه بصوت خفيض فيـقول : « اللهم أقول إنـهم أشد جهـلاً من هؤلاء ، وأشد عُريا لأنهم غلـفوا قلوبهم وعقولهم بثوب فـضفاض يُظهر ما تخبئه هذه الـعقول ، وما تنضح به تلك القلوب ، إلا أنى أسالـك يا سيد الأنهـار ، وأستـحلفك بالذى وهب لك ولداك السد الـعالى ، وتوشكى : أوَ تنفى عـــن هؤلاء العراة الأفارقة جهلهم » ؟ ٠

يقول النهـر : « لا ، بل هم فقراء تمخض فقـرهم اللعين هذا مع مرور الأيـــام عن جـهل ، تُرك الجـهل يرعى دون توجـيه أو إنارة شـمـعة فـتـخلله السم الزعـاف ، وحامت حـوله الهوام والحـشرات ، فلما نـتن وسرح سمـه صار مرضـا عُضـالا يقتل ويدمر كالنار تســـرى فى الهشيم » .. فلما صرخ الجميع هنا وهناك وقالوا : « أوقفوا العفـريت ، أوقفـوا الإيدز اللعين إنه صار كـالمنجل يحصـد الرقاب ، حـينذاك شُلت

العـقول ، وصـارت الأيدى غيـر قادرة على كـبح جـماحـه ٠٠ ورغم أنى أنا الـمـاء الطهـور الذى يُطهر الأجـسام والثياب ، إلا أننى فـشلت الفشل الذريع فى أن أطـهر قلوب وعقول هؤلاء التعساء » ٠

في عُجالة تقترب إمرأة عجوز وتسأل النيل فى خوف وهى تشير بيدها المرتعشة إلى الشـباب من ورائهـا وتقـول : « وماذا ترى لنـحمى هؤلاء من الموت الأسـود » ؟ يقول النهر : « ألا يستأثر أحدكم برأيه ، وألا يدّعى العلم دون غـيره ، ولتتحد العقول والقلوب على رأى واحـد وهو اقتـلاع دابر هذا المرض من جذوره قـبل أن يستـفحل فـيصـير طاعـونـًا مـدمرًا فـيقـضى على الملايين كـما حـدث فى أوربا في العـصـور الوسـطى » ٠٠ عندما يتوقف النيـل عن الكلام ، تشرد العقول وتروح تفكر ، وتنعقد الألسنة فى الأفواه وكأنـها لُجمـت ، وتتحرك الأجسام تسوقها الأقدام ، والنيل النهر إلى الأمام لا يلتفت إلى الوراء وكأنه سأم ساكنى الديار ٠

وعند الوادى الضيق يقف النيل الذى ينظر إلى الرفاق ويقول : « ويضيق الوادى بغتة ويبدو الصوان الذى هو أكبر عدواً لحياة الأنهار ، وتتوارى السفن ، وترونى انقبض فى مضيق يَبلُغ عرضه سبعين متراً بفعل الصخور ٠

وسرعان ما أنحنى فجأة من الشرق إلى الشمال نحو تسعين درجة أيضًا بفعل الصخور ، وانقبض نحو سلسلة من الدوافع فأتحول إلى سيل كما فى طفولتى ، ولا أكاد أبرح مكانى إلا ويأتينى سيل آخر من الشرق فيعززنى ويجعلنى أثور فتعلو آنذاك ضفتاى عمقا كمجرى نهر جبلى ، لذلك يُطلق علىّ فى هذه المنطقة اسم « بحر الجبل » ويظل هذا الاسم ملازمًا ومصاحبًا لى مسافة تربو عن سبعمائة كيلو متر [1]

استوقف النيل والرفاق فتاة تشير بيدها تسأل فتقول : « أزعم أننا خلفنا وراءنا الجبال ٠٠ فعجبًا ؟ ما هذه الامتدادات الجبلية التى نراها الآن أيها الفتى المغوار النهر » ؟

يعقب النهر فيقول فى وداعة : « هذه الامتدادات الجبلية هى آخر الجبال التى أراها ، ثم يبتسم بعدها ويقول : « بعد هذه الامتدادات الجبلية ينتهى شبابى الهائج الأرعن ، وأبدأ طوراً جديداً قوامه العقل والاتزان بتحديد سيرى ، وسرعان ما ينتصب عودى دون انحناء ، وأصبح نيلا صالحا للملاحة » ٠

يلتقط الفتى النهر أنفاسه بعد طول عناء ثم يواصل حديثه إلى الرفاق فيقول : «وهنا يبدأ السودان شقيق مصر المحروسة ، وهنا ترونى أحمل الغرين [2] فأضعه على ضفافى فيرتفع حينذاك مستواى ٠٠ وأصير أنا النهر صالحاً للملاحة بين درجتى ٥ ,١٨عرض ، أى مسافة تقدر بحوالى ألفى كيلو متر ٠

ويتجه قرص الشمس الذهبى إلى الشفق ، وتتجمع طيور البلاشين خلف قائد

---

(١) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ ٩٥

(٢) الغرين : الطين يحمله السيل .

السرب استعداداً للأوبة ، وتسرع طيور الأبيس تنادى على صغارها أن هلموا للرواح ، ويزأر الأسد فتتحرك الطيور فزعة وكأن الأسد نذير الليل ينذرهم بقدومه ، أو لعله ينبههم بموعد الرواح ·· يسدل الليل أستاره فيتثاءب النهر ، ويتوقف عن خريره ، ويسدل النيل هو الآخر أهدابه ، ويروح فى نومٍ عميق ، والرفاق على ضفافه نائمون وريح الأمن والأمان ترفرف من حولهم ·

* * * * *

وبينا النيل يغط فى نوم عميق رأى وكأن الصبح قد انبلج وهو على مشارف منطقة المناقع التى تُعين مصيره ، وتقرر مصير بلد بأسره ، والرفاق ينظرون فإذا بالمناقع توجد فى حمى من العشب والقصب ، وأنها بعد قليل سوف تكون دروعًا تزيد زيادة لا حد لها ٠٠ هتف الرفاق فى خوف : « أن عُد يا نيل ودع المناقع وشأنها إنها الفوضى تنتشر وتشتد ، إنه الصراع يا أمير الوادى بين الماء والأرض » ، إلا أن النيل لم يسمع هتاف الرفاق ، وإذا به يدخل منطقة المناقع دون أن يشعر ٠

والنيل يُدرك منذ الوهلة الأولى أنه الامتحان ، بل المغامرة العظمى والكفاح الرهيب من أجل أن يستفيد الناس فى مصر من عسله عندما يبلغ المشيب ، فها هو سوف يضطر لاتمام جريه حول الدرجة العاشرة من العرض الشمالى وهو لم يتجاوز بعد سوى ثلث مجراه ٠

وسرعان ما تعم الفوضى وتنتشر مرة أخرى بضغط من الرياح الموسمية ، آنذاك يترك النيل ضفته الشرقية ويضيق من ساعته فى سلسلة من الانحناءات ، ولا تجد الروافد منفذًا فتتألف منها أحواض وبحيرات ، وإذا بالنظام النهرى يتحول بين الفينة والفينة إلى عالم غير ملتحم متروك للريح متوار فى قنوات لا يُحصيها عد ٠

وإذا بالرفاق يغذون فى السير ليتتبعوا أثر الرفيق النيل والهلع باد على وجوههم ، وإذا بهم يُدركون بعيون المحبين أن مصدر هذه البلبلة هو انبساط النهر الأصلى (النيل) الذى لا ضفاف له ، وانبساط رافديه العظيمين (بحر الغزال وبحر الزراف) ، وإذا بالنباتات العائمة التى تشبه الكتل والأسداد تقف حجر عثرة فى وجه المسكين النهر الذى يضطر ببالغ الأسى إلى الانحناء والانعطاف مرات بقنوات جانبية قليلة العمق ٠٠ وقف الرفاق ينظرون والدمع يتقاطر من عيونهم وهم يشاهدون الجذور والطين يحيط بها من كل جانب ، وسرعان ما يختفى أمامهم المجرى الأصلى ، وتنمو الجذور فى كل جهة ، وقتذاك يصرخ الرفاق من الأعماق قائلين :

« يا ويلنا ، أين النهر ؟ أين الرفيق النيل ؟ أهو حى لنرتجيه ؟ أم ابتلعته الجذور والنباتات فى بطونها ؟ وجلس الرفاق يبكون فى يأسٍ فصاروا من كثرة البكاء والنحيب عُميانا وهم مبصرون ٠

وبينا الرفاق يمشطون بعيونهم القلقة أرض المناقع بحثًا عن النيل رأوه من بعيد بلا ملامح مقطع الأطراف والرأس ، فالتاعت قلوبهم من هول منظر الحبيب هكذا ، وزاد من حزنهم أنهم وجدوه يتشعب ملء البحيرات الكبيرة فى بلد جبال القمر ، وإذا به لا يقف عند هذا الحد من الضياع ، بل يتشتت فى قنوات ملتوية ، وفى خلجان ، وبحيرات ، وبرك ، وأحواض ، حتى ليبلغ عرضه خمسة وعشرين كيلو مترا ، وينكمش أخدوده فلا يزيد عن ستة أمتار ٠

أيقن الرفاق أن النيل عائد لامحالة فى ذلك لما شاهدوا الشيوخ الركع ، والأطفال الرضع ، والبهائم الرتع ، وأيضا لما راحوا فسألوا القلوب فأخبرتهم أنه الماءالطهور ترياق العروق في الأجساد والأرض ، إنما أهداه الله تعالى لها حتى لاتصير مواتًا بوارًا ، كما دلتهم عقولهم وأبصروا بعيونهم ما تنسجه الريح الموسمية الغضوب من خيوط لتشعل فتيل الحرب الشرسة بين السماء والأرض ، آنذاك رفع الرفاق أكف الضراعة وقالوا مبتهلين : « ربنا رد للرفيق النيل رأسه وأطرافه وأمتعنا بالنظر إليه فإننا لا نستطيع العيش بدونه ، وعهدًا علينا أن نحافظ على مائه نظيفًا رقراقًا ما بقينا فى هذه الدنيا الغاربة » ٠٠وانصرف الرفاق يتتبعون أثر النيل النهر ٠

فإذا ما جاء صبح الليلة التالية أبصر الرفاق ـ والفرحة العارمة تعتلى وجوههم بعد طول عبوس ـ الريح الأخرى قادمة وهى تشهر سيوفها البتارة من الجهة المعاكسة ، فاذا هى تمزق كل شئ إربا ليسترد النيل حريته ، وتزيد من سرعته فى الجبال إلى عشرة أمثالها فى بعض الأحيان ، ومن ثم تنشأ فيضانات النيل وروافده ٠

أدرك الرفاق والنيل ينادى عليهم وهو يُغادر منطقة المناقع : أن قوة النهر الحيوية التى لا تفنى تنتصر فى الغالب على الألوف من أعدائها الصغار ، كما تتغلب على أخطار المناقع ، وإنه وإذا كان النيل الحبيب لا يُغلب ، ويجد سلامته فى

الصحراء ، فإنه لاشك يترك بعد أن تضع حرب المناقع أوزارها ماءً غزيراً فى هذه الإسفنجة التى تجعله يفقد درجات كبيرة ، فيحدد هذا الضياع مستقبله ومستقبل مصر فى الوقت ذاته •

فى الطريق إلى النهر بعد خروجه من المناقع شاهد الرفاق النيل مرصعاً بجزائر رحبة ومنخفضة ، والبلد المجاور يتحول إلى سهب •• ويكون النيل بجوار « بور » من ناحية الغرب عطوفًا فى واد نراه يتأرجح فى العرض بين خمسة كيلو مترات ، وعشرة كيلو مترات ، ويستغدر المجرى والوادى ، وفى الغرب تبتعد التلال بعضها عن بعض ،آنذاك تصبح الجزر أوسع مما كانت عليه •

أما فى المجرى التحتانى من بور فتسيطر الغُدر [1] والعزلة التامة حتى بحيرة « نو » أو بالأخرى حتى الكيلو ٥٠٠ من الشمال •• وإذا قمنا فنظرنا إلى النيل من الطائرة لوجدناه عبارة عن وجه متوج أحمر محاط بطين أبيض مخطط بأذرع جانبية وبحيرات ، وغدر ضاربة إلى خضرة ، يُرى بحر يشير القصب والبردى إثارة خفيفة ، وفى الغرب ، وعلى بعد عشرة كيلو مترات من النيل نجد الغُدران تنخفض أكثر عن مثيلتها فى الشرق ، كما نجد ضربًا من الأحداب يفصل هذه المناقع عن مناقع بحر الغزال الوافدة من خط المياه القاسم بين حوض النيل ، وحوض الكونغو ، ويؤول هذا الخط الجوهرى لنصف القارة إلى منحدر مترين من العلو [2] •

وعند الدرجة العاشرة من العرض ، وفى أقصى شمال المناقع يشير النيل إلى بحيرة « نو » الواسعة التى لا تبصر غايتها •• ويواصل النهر حديثه فيقول والرفاق يصغون إليه فى اهتمام بالغ : «انظروا إلى تلك البحيرة التى تُدعى «نو » والتى تُعد نقطة انطلاق جديدة لنيلكم الحبيب ، فعندها أبلغ الحد الغربى من مجراى فى الدرجة الثلاثين من الطول الشرقى لأصل مرة أخرى بالشلال الثالث ••وإلى بحيرة نو تنتهى الروافد الثلاثة التى تحدد نظام مياهى أنا نهر النيل •

---

(١) الغُدر : مفرد الغدير وهو النهر الصغير .

(٢) نفس المرجع السابق ، صـ ١٠٨ .

يتوقف النيل هنيهة ثم يستكمل حديثه إلى الرفاق فيقول : « لو نظرتم إلى مسيرى فى بحيرة نو وجدتمونى أتجه ناحية الشرق ، حيث أداوم على اتجاهى نحو ١٢٠ كيلو متر فعندما أبلغ « ملاكال » أسلك سبيلى الطبيعى من الجنوب إلى الشمال ٠

ويسير النيل النهر وبجواره وخلفه يسير الرفاق الذين يصغون إليه فى اهتمام

وهو يقول : « وكما ترون يتغير المشهد بتغير اتجاهى وطبيعتى ، والآن تصير ضفافى أكثر وضوحًا ، وأكبر عرضًا حتى ليصل اتساعى إلى مايربو على مائة متر »٠

* * * * *

وعند غرب بحيـرة « نـــو » الأقصى وقف الجميع وراحـوا ينظرون إلى حيث يلتقى بحر الغزال ، وبحر الجـبل دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة ٠٠ وبـعد قليل شق السكون صوت شاب قوى يقترب من النيل ويطلب منه فى لهـفة فيقول : « أيها النهر المغوار جـميـل الطلعة ، عذب المـاء هلاّ تحـدثت إلينا قليلاً أثناء فتـرة توقفنا هذه عن بحر الغزال، وبحر الزراف ، وبحر الجبل لنعرف هل تعانى هى الأخرى من هذا الجور كما تعانى أنت يا سيد الأنهار ، أم أن المعاناة صارت وقفًا عليك دون غيرك » ؟

يومئ النهر بالـموافـقة ثم يقول : يـمتد حوض بحر الغـزال رافد النيل العملاق على الدرجة الـعاشرة من العـرض والدرجة التـاسعة من الطول ، وفـيمـا وراء صحن البحـيرات الاستـوائية التى أُولد منها ، وبعبارة أخرى هو يجـرى إلى منطقة السدود من الغـرب ٠٠وبحر الغزال عبـارة عن مجموعة نهرية تنحدر من خط تقـسيم الـمياه بين نهرى « الكونغو » وحبيبكم النيل » [(١)] .

ويتكون بحر الغزال من عدة روافد نهريـة صغيرة أهمها : الرهـل ، والمريـدى ، والجـود ، والتونج ، والـلول ، وبحر العـرب ، وكل هذه الروافـد تجـرى فى حـــوض بـــحر العرب الذى تبلغ مساحته نحو (٥٢٦٠٠) كيلو متر مربع ٠

وفى حوض بحر الغزال يعيش شعب متـميز من الشعوب النيلية ، يتكـــون هذا الشعب فى معظمه من قبائل « الدنكا » ٠٠ وقبـائل الدنكا (الزنجية الـحـامية) تنتشر فـــى حـوض بحر الغـزال حتـى الـمناطق الشرقـيـة من ضفـاف النيل الأبيض ، وهم يعيشون علـى رعى البـقر ، ويتنقلون بها فى السهول المنخفضـة خلال فصل الجفاف ، أمـا فى فصل الأمطار فـتـتجـمع الدنكا فى الأراضى المرتفـعـة حيث يزرعـون الذرة ، والسـمـسم ، والفـــول السـودانى ، ويجـمعـون مـا يزيد ويفـيض من عـسل النحل والأخشاب [(٢)] ٠

---

(١) يُطلق اسم بحر الغزال على مجرى النهر من مشروع الرق حتى يصب فى بحيرة (نو) .

(٢) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ،صـ ١٣٨ .

تلتمع عينا النيل بالدمع ، ويتحشرج صوته حتى لايكاد صوته يُسمع وهويقــول بحزن بـالغ : ويذكرنى الشـقيق بحـر الغزال بالحـصان السبـوق الذى لا يشق له غـبار بشهـادة الـمنافس الخصم قبل الصـاحب ، إلا أن حظه العاثر يوقعـه ذات يوم عاصف أرضًـا فلم يقو على الـنهوض ، فـإذا بـه ينظر إلى طابور الـمنافـسين من الجـياد يـمـر أمامه، وهو لا يملك إلا النظر إليهم بعينين تمتلئان بدموع الحسرة والندامة ٠

يبادر الرفـاق النيل بالسؤال فى دهشة قـائلين : « كيف يا أمـير الــوادى ونحن نراه يصول ويجول كالحصان الجامح » ؟

يقول النيل : « يعـانى الشقيق بحـر الغزال مصـيراً مؤثرًا ، ويكابد حـتى اللهاث قبـل أن يقتـرب منى أنا النيل ، ورغم أنه يُعد الأكـثر مـاء ، والأشد كـفاحـا من كل أنـــهار أوربا ، ورغم أنه يَحَيا بسـواعده الخاصة فقط حياة نهر كبـير إلا أنه سرعان ما يُصـر أخى بحـــر الغزال الأرض البـعيدة المستوية ذات الشجـر العظيم ، كما يبـصر الأيكة الكثيفة البكر حتـــى الخط الفاصل بين مـياه الكونغو ، ويبصر فى مجراه الأدنى اصطراع الـــماء والأرض كمـــا هو أمرى » ٠

ويخسر بحر الغزال مجراه ، واتجاهه ، وطبيعته ، وتربكه الأسداد النباتية ، وجزر الكلأ والشعب ، والجـداول ، آنذاك يصير عـرضه لفوضى الــمناقـع ويضيع سلطانه ، ويترك بـحر الغزال ضـعفى مـا يترك شـقيقـه النيل فى المناقع من ماء ٠٠ وينظـر بحر الغزال فـــإذا هو عاطلاً من الضـفاف ، منحـلاً لم يبق له من ماله الذى كـان يزهو به ويفخر غير مضيق [1] ٠

---

(١) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ١٣٨ .

يقترب من النهر فتى يبدو عليه الحزن الشديد مما آل إليه مصير بحر الغزال ويعاجله فيقول : « وماذا عن بحر الزراف القادم من الجنوب » ؟

يُدرك النيل بفراسته المعهودة أن حديثه عن بحر الغزال قد أصاب قلوب الرفاق بالحزن ، فعقد العزم أن يكون حديثه عن بحر الزراف مختصرًا مكثفًا ، آنذاك نظر إلى الرفاق وقال وهو يبتسم : « من جهة الشرق يجرى بحر الزراف قادمًا من الجنوب ، وموازيًا « لبحر الجبل » الذى يقع على يساره .

وبحر الزراف يُعتبر من روافد ى (روافد النيل) ويلتقى بالمجرى الرئيسى للنيل شرقى بحيرة « نو » ويبلغ طوله نحو (٢٩٠) كيلو متر[(١)] .

وبحر الزراف الذى يصب فى النيل شرق بحيرة « نو » يخرج من مناقع واقعة فى مكان ما من مجرى « أواى » التحتانى ..

أما « بحر الجبل » الذى يجمع بين صفتى البطء والعنف فى بعض المناطق حيث تكثر الجنادل والشلالات .. ولا يقتصر مجرى بحر الجبل على مجرى واحد ، إنما تتصل به مجموعة كبيرة من الروافد والنُهيرات ، بعضها ماؤه دائم الجريان ، أما البعض الآخر فلا يجرى فى مجراه الماء اللهم إلا فى موسم الأمطار .

وبحر الجبل جزء من المجرى الرئيسى لنهر النيل ، وليس هذا فحسب بل هو الإمتداد الجنوبى لمجرى النيل الأبيض .. ويُطلق اسم الجبل على مجرى النهر منذ التقائه « بنهر السوباط » حتى « نيمولى » بأقصى الحدود الجنوبية للسودان ، ثم يستمر المجرى الرئيسى بعد ذلك ليُطلق عليه اسم «نيل ألبرت » ثم يخرج من بحيرة ألبرت ليُطلق عليه اسم «نيل فيكتوريا » .

---

(١) مصر والنيل فى أربعة كتب ، مختار السويفى ، الدار المصرية اللبنانية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٨٦، صـ ٦٢ .

سـار النيل بخطى رشيـقة ومن خلفـه سار الـرفاق والسكون بدا ينسج حـولهم نسيجه لولا أن أسرع النيل النهر وقال : « ونهر السوباط » الذى ترونه الآن أكثر الثلاثة (بحـر الغـزال ، بحـر الجـبل وبحـر الزراف) وقفـا للنـظر، والسـوباط هذا يصب فى مـجراى أنا النيل عنـدما أقـوم فأسـترد مـجـراى إلى الشمـال قـريبًا من بحـر الزراف التحـتانى، والسوبـاط هو الرافد الأول الذى يحمل إلىَّ غـرين الحبـشة ، وهو لايتناول رغم حوضه العظيم من هضبة البحيرات الكبيرة غير جزء من مائه ، أما بقية مائه فيأتى إليه من جبال الحبشة العالية » ٠

وعلى غرار أنهار الحـبشة الأخرى يسـير السوباط ، فهو يقـوم بجولة طويلة فى الجبال ، أمـا فى السهول فهـو لا يسير غير زمـن قليل ليلاقى فيها الأنـهار الوافدة من البحيرات الكبيرة ٠٠ ولما كانت ضفاف نهر السوباط أكثر ارتفاعًا من جوارها ، لذلك نجد أن مياه الفيضان لاتعود للوراء ، بل تظل راقدة طول العام » [1] ٠

يسكت النيل هنيهـة ثم يقول : وفى « ملاكـال » أنحرف نحو الشمـال لأحمل الاسم الرابع لى ، فبـعد أن كنت نيل فيكـتوريا ، ونيل ألبرت بعـد اجتماعـهما ببـحر الجـبل ، أصــبـحت الآن « النيل الأبيـض » وها أنا سـوف أجـرى بإذن الـلَّه من توى مستقيمًا نحو الشمال بلا روافد » ٠

ويتجاوز النيل المنطقة الاستوائية ، وتنقضى مغامرات الشباب ، ويسير نهرًا متزنًا إلى مصيره القادم ، وهاهو يرتدى ثوب الكهـولة بعدما طرح ثوب الشباب على أرض المنطقة الاستوائية ٠٠ وصار عمق النيل ههنا لايتجاوز الأمتار الخمس ، والـمترين فى بعض النواحى ، أما عرضه فيبدو كعرض البحيرات ،إلا أنه ساكنا غير جار ٠

ويمتد السهل الواسع الذى يتحرك فيـه النيل بلا خطر ولامانع إلى مسافة ١٢٠٠ كيلو متـر بين سفح هضبة البـحيرات والخرطوم ، فـيحده من الشرق منحـدرات جبال

---

(١) يمثل نهر السوباط حوالى ١٤ ٪ من مياه النيل فى الخرطوم .

الحبـشة ، ومن الغرب جـبال نوبة وتلال كردفـان ، وهذه هى النقطة التى انتهت إليـها معرفة بعض شعوب الأمم القديمة عن نهر النيل[1] ·

وبينا النيل ينظر فى بشاشة إلى قـطيع من الجمال يقترب من ضفـافه ليشرب من عـسله بعـد عناء يوم طويل ، نام الرفـاق وارتفع غطيطـهم ليـملأ الأرجـاء ·· فلمـا وجدهم النيل هكذا أخذ يتـمتم لهم بالدعاء وتركهم ليلتقى هو النيل الأبيض بشـقيقه النيل الأزرق تحت نخـيل الخـرطوم ، وفـى عناق أخـوى ، وفى أروع مكان من بقـاع الدنيا ، يتهامس الأخوان الأبيض والأزرق على مصـير مصر الذى يكن لها كل منهما الحب الدائم الذى لا ينقطع أبدًا ·

(١) النيل حياة نهر : إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وينبلج نور الصبح

وينبلج نور الصبح لتسمع همساته وترى تباشيره الطيور الكامنة فى أوكارهـا، آنذاك تنطلق أسرابها فى الفضاء الرحيب ، ثم تَحُط لتبحث عن الحبات والقطرات تتقدمها طيور البجع[1] ، والصفرد[2] ، والصرد[3] ، والنورس[4].

على الجانب الآخر وقف الرفاق تعلو وجوههم السعادة والنيل يتحدث إليهم فيقول : « والناظر إلى النيل والمطر فى الحبشة يجدهما إلهين هائجين ، أما الناظر إلى بحيرة «طانة » فيجدنى أخرج كما يخرج منها عدد من سواعدى الصغيرة .. فلما يُسأل النيل عن « نهر العطبرة » يقول : « ويح العطبرة الذى يعصب عيناه فتراه يجرى بمفرده نحو الشمال ، وهو كجميع المجارى النهرية يظل مجراه جافًا فى فصل الشتاء ، حتى قال من شاهد العطبرة فى فصل الشتاء (فصل الجفاف) أن الأطفال والشباب يلعبون الكرة فى مجراه ، إلا أنه فى فصل الصيف تحدث له الفوره فيفيض بالماء» [5] .

يصمت النيل هنيهة ويتمايل مائه الرقراق ويقول : « وفيما تكون السماء زرقاء صافية إذ يسمع من بعيد قصيف، رعد وهدير ، وترتفع ألوف الصرخات من حناجر النساء ، والرجال تُنبه وتحذر من قدوم البحر .. والحقيقة أن ا لبحر براء من هذا التوجس الذى أصاب القوم الرحل وجعلهم يفرون طالبين النجاة من براثن النهر الجسور ، وإنما هو ذلك الهدير الذى تحول إلى زئيرٍ مخيف وأنا أنحدر من الجبل الشاهق ، وذلك فى منتصف شهر يونيه » .

---

(١) البجع : طائر عريض المنقار ، طويل ، له حويصلة كبيرة ، واحدة بجعة .

(٢) الصفرد : طائر كطائر السلوى يضرب به المثل فى الجبن .

(٣) الصرد : طائر ضخم الرأس ، أبيض البطن ، أخضر الظهر .

(٤) النورس : طائر فى حجم الحمام ، يعلو فى الجو ثم يزج بنفسه فى الماء ، لايأكل غير السمك .

(٥) يجرى النيل الأزرق والعطبرة فى مضايق عميقة ، وهما لا يفيضان فى الغالب ، وينفصلان عن السهب أو الصحراء بطران (شقوق مستطيلة فى الأرض) .

وبينا أنا ثائر تجدوننى أبلغ من الاتساع خمسمائة متراً ، وترون أمواجى السمراء تجرف أشجاراً ، وخيزراناً وغريناً ، كما ترون الطيور القابعة التى جفت حلوقها من الظمأ تلعب وتُصدر أصواتا تعبر فيها عن فرحتها بقدومى ، فلما تسمعها الحيوانات الساكنة وراء العشب تجرى وتلعب هى الأخرى ، وهى تشرب من مائى بالهناءة والشفاء ٠

وينظر الرفاق فإذا النيل الأزرق يخرج من بحيرة كأخيه العاقل النيل الأبيض وذلك عند المنبع جنوب بحيرة طانة على ارتفاع ٢٧٠٠متر ، حيث يجرى الشقيق الأزرق بهدوء من بئر ذات عمق متوسط ، ماء صاف بارد خال من الفقاقيع إلى خندق ضيق ، وسرعان ما يتوارى وراء إيكة ناحية الشرق ٠

وبينما تجدون النيل الأبيض يجرى حوالى الألف ميل قبل أن يمجد كإحدى عجائب الدنيا ، تجدون النيل الأزرق يُعبد صبيًا فى المهد ، وهو يقوم دون رقيب بجولات طويلة من خلال بقاع غير معلومة ٠

والحركة الأولى للنيل الأزرق عند خروجه من بحيرة طانة تكشف عن عبقرية فى سجيته ، وعن عنف ممزوج بسخاء ، فهو يجوف لنفسه ممراً عميقًا فى الصخر وتبلغ أمواجه الفائرة من سرعة الاندفاع وتهبط معه ٣٠٠٠ متر من ثمانين كيلو متر ، وتكون الصخور عارية قبل المطر ، وعند التقاء الجلاميد والماء عند الشلال ، وحينما ينحدر الموج من علٍ ، ويدخل النهر مجراه تظهر الصخور مستورة بغُثاء السيل ٠٠ ويضيق المجرى علىَّ بعد خمسين كيلو متراً من بحيرة طانة ، وإذا بالنيل الأزرق يُحمل على المغامرة بتجربة مسقط كبيرة كالنيل الأبيض فى أقصى الجنوب ، وهذه المغامرة هى الوحيدة فى حياة كل من النيلين (١) ٠

---

(١) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ ١٧٢ ، ١٧٣ .

يُطلق أهل البلاد اسم (تيزيتات) على المسقط المشار إليه بعاليه ، أى النار التى لها زئير ، كما تُسمى مساقط بحيرة فيكتوريا فى روديسيا بـ (الغثان الطنان) أى الدخان .

نظر أحد الرفاق إلى النيل النهر وقال له مستفسراً : « يا أمير الوادى لماذا يتغير لونك فى بعض المناطق عنه فى المناطق الأخرى مثلك فى ذلك مثل الإنسان يتغير لونه أثناء مرضه وغضبه » ؟ ٠

ترتسم الجدية على وجه النهر الذى يقول معقبًا : « روافدى تأتى إلىَّ من داخل الجبال التى تحيط بها وهى تحتوى على مواد معدنية تجعل مائى شديد الأسمرار ، وذلك بعد خروجه من بحيرة طانة شديد الصفاء ، ولا أحسبنى أبالغ إن قلت أنه شديد النقاء ، وإن كان العرب يُطلقون علىَّ اسم « البحر الأزرق » فلا يدل هذا الاسم على كونى أزرقًا فقط ،بل وترونى أيضًا أغبر ، وأسود » ٠

يسكت النيل برهة ثم يعاود الحديث مرة أخرى فيقول : « فى موسم الجفاف (الشتاء) عندما ينخفض مائى فلا ينقل أكثر من ٢٪ من المواد العالقة بى كالمواد المعدنية مثلا ، آنذاك تشاهدوننى أميل إلى الزرقة خاصة تحت سماء صافية ، فإذا قدم فصل الصيف تجدوننى أحمل ما يقرب من ١٧٪ من الغرين ، حينذاك أبدو أسمر قاتمًا » .

رأى النيل أن الإرهاق قد دب فى أجسام الرفاق فاستوقفهم وأحب أن يدخل البسمة فى نفوسهم من خلال معلومات قد تبدو غريبة على أسماعهم ، فقال لهم : « انظروا إلى هؤلاء الزنوج الأحباش قبل أن نتركهم ونذهب إلى السودان ، فلما نظروا قال : « أوَتدرون ما الزواج عندهم » ؟ قالوا : اللّه ورسوله أعلم ٠

قال النهر : « النكاح عندهم سر مقدس يستطيع كل واحد أن يأخذ به ما طاب له من النساء ويكون جميع أولاد الرجل شرعيين ، وتنال كل زوجة ما تطلبه من نفقة ، ورغم أن حياة الزنوج فى الحبشة تشير إلى القرون الوسطى فى بداءتها وبساطتها ، إلا

أنهم يتمتعون بنظام أوربى عصرى فى الزواج التجريبى ، وشعار هذا الـــزواج هو : (لنبصر أولاً هل تحمل المرأة أولاداً) » .

وترتبط البنات بآبائهن فى الزواج الأول بين السنة الحادية عشرة والسنة الثالثة عشرة ، بعد ذلك يُصبحن حرات فى الاختيار ٠٠ وقيل إن البنت الغنية إذا لم تجد زوجًا اتخذت لها خليلاً عاشقاً ، ولا يقف الأمر بها عند هذا الحد ، بل تتجاوزه عندما تدفع له جُعلاً ، وهى تعامله مثل خادم ، وهذا الخادم يُدعى « فوتبيتا » أى طاهيًا ، ويكون هذا الطاهى أو الخادم ملزما بأن يعيش بجوار المرأه الغنية ، وأن يظل وفيا لها مع احتفاظها بحريتها » (١) ٠

ولا يحق للخاطب أن يزور خطيبته ، فإن فعل وجب عليها أن تفر منه مذعورة ، فى حين أن من حقها استقبال شبان آخرين ، والأحباش يجهلون القبلة ، وما يُعادل القبلة عندهم هو تدليك مقدمة أنوفهم بالأصابع السبابة ٠

بعد أن انتهى النهر من حديثه طلب منه الرفاق استكمال السير ، فسار النهر بخطى حثيثة ومن خلفه الرفاق ٠٠ وعند الشمال الغربى وقف النهر ونظر إلى الرفاق وقال : « وكما ترون أن أخى النيل الأزرق قد بلغ سهل السودان ، وهو يتجه إلى هدف غير معروف ، ولاتحميه الصخور والغابات ٠٠ وهو الآن يُعانى مثل ما عانيته أنا شقيقه النيل الأبيض فى المجرى الفوقانى بالخرطوم ، ويسيطر عليه سد « سنار » وينظم مجراه » .

يصمت النيل النهر برهة ثم يقول بحدة بصوت عالٍ : « ويح النيل الأزرق ، أوَ

---

(١) النيل حياة نهر ، إميل لودفيغ ، ترجمة عادل زعيتر ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٧ ، صـ ٢١٥ .

يشعـر الأرعن الساذج حتى الآن أنه ليس إلا جـزءًا من كل ، أوَ لا يصدق أن شقيـقه النيل الأبيض المتثاقل الشاحب هو رافد يجب عليه أن يقبله طوعًا أوكرهًا » ؟!٠

يرى الرفاق وكـأن النيل الأزرق قد سمع أخاه النيل الأبيض ، فـإذا هو يأتى إليه فى سرعة فائقة، وسرعان ما يتعانق الأخوان فى غير تنافس ٠٠ وفى حب يهمس النيل الأزرق فى أذن أخـيـه قائـلاً: « لايُعد أحـدنا أفـضل من الآخـر ، أو تابعًـا له ٠٠ وإذا بالرفاق ينظرون فإذا بالنهرين الشقيقين من فرط حبهما قد صارا نيلاً واحداً يتجه إلى مصر بإذن اللّه ٠٠ وإذا بعيون الرفاق تلتمع بدموع الفرح وهى ترى قوة شمس مصر ، وصفاء هواء الصـحراء ، وسخاء النهـر الموزع للحياة ، وكيف لا ؟ وهو مـقياس كل شئ فى مصر ، ليس فى هذا الزمن فحسب ، بل فى كل الأزمان والعصور » .

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

نهـــايـــة المطــــاف

وتتقاطر دموع الفرح

وأدخل أنا النيل النهر أرض الكنانة ودموع الفرح تتقطر من عينى وأنا أشاهد أبناء مصر الأوفياء ينتظروننى فى شغف ، ومن كثرة سعادتهم بقدومى أسمع خفقات قلوبهم بين جنباتهم وكأنها تصفق فرحة بعودتى من الرحلة الشاقة ٠

إلا أن الناظر إلىَّ فور دخولى أرض مصر يجدنى أشكو الضيق ، فالهضاب تُطفى على أوديتى حتى لتكاد تخمد أنفاسى ، لكنى بإذن اللَّه أستطيع أن أواصل الرحلة وأجرى على أرض المحروسة لمسافة تبلغ ١٥٠٠ كيلو متر على وجه التقريب ٠٠ وكما تعلمون أبناء مصر أحفاد العظماء أنى عندما أدخل مصركم لا ألتقى بأى رافد يعوضنى عما أفقده ، فلقد ودعت آخر روافدى قبل خروجى من السودان (١) ٠

ينظر النيل إلى الرفاق نظرة قوامها المحبة ويسألهم فى عجلة فيقول : « أوَ تدرون ؟ وقتذاك تعتلى الوجوه الدهشة ، وبصوت خفيض يقول الجميع : « وما الذى تريد أن ندريه يا أبا الجود والكرم » ؟ !

يقول النهر : « من زمن قديم كانت صحارى مصر تمدنى بشئ من الماء ، وخاصة صحارى الشرق يوم كان المناخ أحسن حالاً مماهو عليه الآن ، وكانت السماء سخية لم تعرف البخل ولا التقتير ، يوم كان الإنسان يتعبد للَّه خالقه أطراف الليل والنهار فتشفق عليه السحب لطول تعبده ، أو لعلها تغار منه فتبكى فينهمر المطر ٠٠ وخلف هذا العصر الممطر أودية ضخمة تذكرنا بماضى حافل بالأمجاد ، إلا أن هذه

---

(١) النيل الخالد ، د. محمد محمود الصياد ، دار القلم ، ١٩٦٢ ، صـ ٧٨ .

الأودية لاتزال تنحـدر إلى النهـر لكنهـا بلا مـاء ومن هذه الأودية « العـلاقى ومنابعـه العليا » فى داخل حدود السودان والذى ينتهى إلى النيل شمالى ثنية كورسكو ، ومنها أيضًا « خـريط » و « شعيت » وهما يتـصلان بالنيل عند كوم أمـبو ، ومنها الحمـامات ومنابعه فى نواحى القصير ، وكانت له شهرة كـبيرة ، حيث كان طريقًا تسلكه القوافل فـيربط آنـذاك النيـــل بالـبحـر الأحمـر ، ومنها « حـوف » و «دجلة » ونهايتـهمـا فى ضواحى القـاهـرة [1]٠

ويتـسابق النيـل والرفاق لدخـول المحروسـة والفـرحة والسـعـادة ترفرفـان من حولهم، والـناظر وقتذاك إلى شـريان الحيـاة والرفاق لايسـتطيع البتـة مهـما أُوتى من كياسة أن يدرى أيهما أسعد من الآخر بوطأه أرض مصر ، أهو النيل ، أم الرفاق ؟

وعند المجرى والوادى الضـيقين يقف النيل ويقـول : « أود أن تعلموا أنى أدخل مصر عند دائرة العرض الثانية والعشرين حيث يضيق المجرى والوادى كما ترون ، فإذا مـا بلغت أسـوان بدأ الوادى ينـفـرج ، ويأخـذ السـهل الرسـوبى فى الاتسـاع ، وأمـا الصخور التى تشاهـدونها على الجانبين الآن فهى من الحجر الرملى ، وتسـتمر كذلك حتى إسنا ليحل محلها صخور من الحجر الجيرى الأغبر ٠

فعندما أصل إلى قنا تقترب الحافة الغربـية منى ، فإذا بى أدور فى ثنية كبيرةحتى ليصبح اتجاهى من الشرق إلى الغـرب ٠٠ لكنى سرعان ما أعـود لسـابق عهـدى عند « نجع حمادى » فتـجدوننى أتجه نحو الشمال ، فإذا ما تجـاوزت نجع حمادى أميل إلى التزام الجـانب الشرقى من الوادى ، وأدع السـهل الفيـضى يتسع على الضـفة الغـربية فتقوم المدن ويستقر السكان ٠

---

(١) نفس المرجع السابق ،صـ ٧٩ .

وفى شمال القاهرة تنفرج الحافتان اللتان حكمتا على السهل الرسوبى بالضيق ، ويبدأ الوادى كما ترون فى تكوين دلتاى المثلثة الشكل والتى يحدها فرع دمياط فى الشرق ، وفرع رشيد فى الغرب » ٠

يتقدم من النهر شاب فى مقتبل العمر ويسأله فى ود فيقول : « يا أبا الحقول والبساتين هلاّ حدثتنا فى نهاية المطاف عن بلوغ الدلتا رشدها » ؟

يقول النهر فى غبطة : « عندما تبلغ الدلتا رشدها لا يبقى منها إلا فرعيها رشيد ودمياط ، لكنها تستبقى من مظاهر الحداثة على تلك البحيرات التى تحف بقاعدتها على ساحل البحر المتوسط ٠٠ فناحية الشرق (شمال شبه جزيرة سيناء) تجدون بحيرة صغيرة هى « البردويل » لا يفصلها عن البحر اللهم إلا حاجز ضيق من الشطوط الرملية ٠٠وإلى الغرب من قناة السويس بحيرة « المنزلة » التى تزيد مساحتها على ٤٠٠ ألف فدان ، وهى لا ترتبط بالبحر إلا بفتحة ضيقة هى (أشتوم الجميل) ٠٠وبين فرعى دمياط ورشيد تجدون بحيرة ثالثة هى « البرلس » [١] وهى تشبه البردويل فى الشكل والموقع من البحر » ٠

وإلى الغرب من فرع رشيد بحيرة مثلثة الشكل تمتد على ٣٥ ألف فدان هى بحيرة « إدكو » ومنفذها الضيق إلى البحر عند بلدة المعدية ٠٠ أما خلف مدينة الاسكندرية فتوجد بحيرة طويلة هى « مريوط » وهى ليس لها صلة بالبحر ، وهذه البحيرات كلها منشؤها عدم تكامل الإرساب النهرى ، ففى بعض الجهات تتراكم الرواسب التى يجلبها النهر من حصى ، ورمل ، وطين بينما تبقى الأجزاء الأخرى منخفضة محصورة بين الرواسب المرتفعة فتكون البحيرات والمناقع التى يعمل على

---

(١) تبلغ مساحة البرلس حوالى ١٤٠ ألف فدان تقريبا ، ويصلها بالبحر بوغاز البرلس ، وساحل البحر على جانبيه منخفض تحف به كثير من كثبان الرمال .

فصلها من البحر الشطوط الغرينية ، والرملية ، والجيرية » [1] .

وعندما يصل النيل النهر والرفاق من حيث بدأت الرحلة بالقاهرة ينظر النيل إلى الرفاق ، وإلى الملايين التى جاءت تستقبله هو والرفاق ويقول لهم بقلب يفيض بالحب : « وكما رأيتم أنى أجمع مائى من مساحات شاسعة من الأرض ، ثم أجرى لمسافات طويلة حتى تتورم قدماى ، وأُصاب تارة بالقوة بعد هزال ، وأخرى بالهزال بعد قوة ، إلا أنى أتحمل كل هذا من أجل أن تحيا شعوب ، وتبنى حضارات ، فهلاّ ساعدتمونى على ذلك أبناء مصر » ؟ ..

هتف كل الحضور بحياة النهر الخالد ، وصاحوا فى فرحة فقالوا : « نعاهدك أيها النيل الوفى الكريم أن تثور كل طوائف الشعب المصرى كما ثارت سنة ١٩٥٢ على المهدرين لمائك فى الشوارع والطرقات ، والعابثين بمجراك ، والغير مدركين أنك النعمة والحياة ، وأن بعض قطرات من عسلك لاتعادلها كنوز الدنيا إذا بلغ الظمأ الحناجر ..

---

(٢) النيل الخالد ، د. محمد محمود الصياد ، دار القلم ، ١٩٦٢ ، صـ ٨٥ ، ٨٦ .

بعد أن فـرغ النيل من حديـثه أخذ الرفـاق ينظرون بأسى إلى هذا الشـاب فارع الطول قـوى البنية الذى نفـذ كـالسهم من وسطهم ، وصـدره يعلو ويهـبط ، ويتمـتم بكلمات غير مفهـومة ، وصار حزنهم لا يوصف ، ولايوزن عندما رأوا قطرات الدمع المحرقة تتـساقط من عين هذا الشاب ، وسمـعوا صرخات قلبـه ٠٠ وكيف لا يحزنون كل هذا الحـزن وهـو ابنهم الذى يعلمـون عـنه كم هو يحب هذا الوطـن ويرتبط به ؟ كيـف لايحزنون وهم يعلمـون أن جلستـه المفضلة هى النهـر الذى يعـشقه ، ورحلـته المحببـة إلى قلبه هى ركـوب ذات الشـراع والسيـر داخل مـجرى النهـر والتغـزل فى خمائله وغيطانه وبساتينه ، وسماع تغريد طيوره ٠

وقف الشاب أمام النيل النهر وقال بصوت متحشرج : « ألم تكتف اسرائيل أنها أغتـصبت الأرض العربية بحـجج واهية ، ووعد سـافر مشئـوم ؟ ألم تكتف منذ اليوم الأول لها على الأرض المقدسة فى إشعال نيران الفتن هنا وهناك ؟ وتدمير الديار ووأد الفرحة فى عيـون الأطفال بقتل أمهاتهم وأبائهم ، وأخيرًا فهى تسـخر العلم والوقاحة والفتن منزوعة الفـتيل من أجل الحصول عـلى ماء النيل ، وأخشى ما أخـشاه أن تصل إسرائيل إلى ما تحلم به منذ سنوات طويلة وأنا مازلت على قيد الحياة » ٠

يضحك النيل ، وفى ثقة يقول : « أيها الشاب المصرى موفور الحماس هدئ من روعك ، وليذهب حزنك الذى لا محل له بعـيدًا ، ولتعلم أنت وكل الرفاق : إن النيل إفريقى المنشـأ والجنسية ، عـربى القلب والعقل والعرق ، فكيف ـ وأنا المأمـور من قبل اللَّه ـ أن أذهب بعسلى وأقدمه لأبناء صهيون على صحف من ذهب وأنا أمقتهم مقتى للجفاف وتعطيل الحرث والنسل ٠٠ واللَّه الذى سـيرنى نهرًا لن يتأتى لهم ذلك إلى

أن يرث الله الأرض وما عليها ٠٠ يسكت النيل لحظات وبوجه بشوش يقول للشاب : « نعم هناك مخطط صهيونى ، وهناك كلمات هى أشبه بالوعد تفوه بها الرئيس « السادات » قائد حرب أكتوبر تأذى منها من سمعها ، حتى هو نفسه تأذى منها وأراد أن يمحوها فقال قولته الشهيرة بعد انتصار أكتوبر : « إن جيش مصر لن يخرج مرة أخرى إلا من أجل ماء النيل » ٠

لما رأى النيل الخالد أن الشاب يصر إصرار العابدين لسماع قصة هذا الزعم المُلبد بالغيوم الذى نما إلى علمه ، ولما شاهد أن الرقاب قد تطاولت ، والأجسام قد اقتربت منه ، وحدقات العيون قد اتسعت قال : « الكبير والصغير يعلم أن مصر أحوج ما تكون لقطرة ماء ، وأنها لاتملك ، ولا تستطيع الاستغناء عن قطرة ماء ، وإن كنتم فى شك فلتسألوا السد العالى لماذا شيدوك يا ابن النيل ، ولتسألوا العروس توشكى فِيَم وجودك بعد شقيقك السد ، وجدك الخزان » ؟ [1] ٠

يلتقط النيل أنفاسه وبعد هنيهة يقول : « راجت فى الصحف اليومية فى أواخر سنة ١٩٧٩ وأوائل سنة ١٩٨٠ أن مياه النيل تفيض عن حاجة مصر ، وأن النيل الكريم يُلقى بالمياه فى البحر ، بل قال السادات بنفسه فى احتفال لنقابة المهن الزراعية (٦نوفمبر ١٩٨٠) :

« إننا نقذف إلى البحر المتوسط أكثر من ٦ مليارات متر مكعب من المياه العذبة « [2] ٠

ولا أدرى أنا النيل الإفريقى الحر كيف أخذ الرئيس يساوم علىَّ عندما راح بلغة

---

(١) المقصود بالخزان : خزان أسوان .

(٢) النيل فى خطر ، كامل الزهيرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، صـ ٩٠ .

الصحافة (يفرقع) فكرته عن تحويل مياه النيل للقدس والنقب ، كان ذلك فى لقاء العمل الأول بينه وبين « مناحم بيجن » رئيس وزراء اسرائيل « واسحق نافون» رئيس اسرائيل وقتذاك ، حيث كان محور اللقاء سرعة التبكير بموعد الإنسحاب الإسرائيلى من سانت كاترين » .

يتحرك ماء النيل حتى يبدو للناظر وكأنه يعتدل فى جلسته وهو يقول : « لعل قائد العبور ـ كان كما قال عنه البعض ـ سريع الأحاديث ، يهوى الخطابة ، فأسرع فوعد بما لايملك ، أو لعله خبر اليهود جيدًا ، حينذاك أراد أن يجذب إليه لجامهم فنثر حبات مكره الحلال على الشراك وغمرها بمائى ، فلما أبصر اليهود مائى تطيرت عقولهم من الفرحة فبلعوا الطعم ، ووقعوا فى شباك الوهم التى نسجها لهم السادات ، وأسرعوا بالموافقة على التبكير بموعد الانسحاب من سانت كاترين » .

يقاطع الشاب النهر قائلاً له فى عجلة : « حسبنا أيها النهر الإفريقى عذب الحديث والماء أن ما قلته الآن هو الحقيقة كما كانت تدور بعقل الرئيس السادات آنذاك ، لكن بماذا تفسر لنا ما أعلنه السادات وهو :

« أعلن الرئيس السادات يوم الثلاثاء الماضى ٢٧ نوفمبر ٧٩ أنه أعطى إشارة البدء فى حفر تُرعة السلام بين فارسكور والتينة عند الكيلو ٢٥ طريق الاسماعيلية وبورسعيد لتتجه نحو قناة السويس لتروى نصف مليون فدان ، وقد التفت الرئيس السادات إلى المختصين وطلب منهم دراسة علمية كاملة لتوصيل مياه النيل إلى القدس لتكون فى متناول المؤمنين المترددين على المسجد الأقصى ، مسجد الصخرة ، وكنيسة القيامة ، وحائط المبكى » (١) .

---

(١) جاء ذلك فى العدد رقم (٤٦) من مجلة أكتوبر فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٧٩ .

ثم راح يخطب ، أو لعله كذلك حين قال : « باسم مصر وأزهرها العظيم ، وباسم دفاعها عن السلام تصبح مياه النيل هى أبار زمزم لكل المؤمنين بالأديان السماوية الثلاثة ٠٠ ولما كان مجمع الأديان فى سيناء بالوادى المقدس طوى رمزًا لتقارب القلوب فى وجهتها الواحدة إلى اللَّه سبحانه وتعالى ، فكذلك ستكون هذه المياه دليلاً جديدًا على أننا دعاة سلام ، وحياة ، وخير » .

يقول النيل معقبًا : « أقول ردًا على ما قلته أيها الشاب موفور الحماس : « إنها الخُدعة ، بل الطُعم الذى ألقاه السادات فى طريق أبناء صهيون فلما تناولوه ثقلت رؤوسهم ، وترنحت أجسامهم ، وخُدرت عقولهم ، وتوهموا أن بريق السراب الذى نثره لهم السادات هو ماء النيل ، ولعل احساسى الداخلى يستصرخنى فيقول : بل هى عصا موسى ألقاها السادات بعدما كَبَّرَ قائلاً : اللَّه أكبر فخرجت الحية التى ابتلعت غرورهم ومكرهم الذى ملأ كل الأجواء » .

فلما مات السادات وعادت الأرض الطيبة إلى أصحابها أدرك اليهود أنهم خُدعوا مرتين ، الأولى أثناء الإعداد لحرب أكتوبر ، والثانية الوعد بمنح بنى صهيون ماء النيل » ٠

تقترب إمرأه يعلو شعرها الشيب من النهر وتسأله وعلامات الدهشة تعلو وجهها فتقول : « استشعرت فى حديثك يا أمير الوادى بالأمن والطمأنينة ، إلا أنى وإن كنت أسألك اليوم ، فقد سألت نفسى البارحة : إسرائيل تريد أن تُذهب بأبصار العرب لتسرق أمالهم وأحلامهم ، لذا أتوجه إليك فأقول : هلاّ تناست إسرائيل هذا الحلم الذى صار يؤرقها ليلاً ونهارًا ، وأدارت ظهرها عن إعداد الخطط لتحقيق هذا الحلم » ؟ !

أدرك النيل منذ الوهلة الأولى أن المراة أعياها التفكير فى هذا الموضوع فقال لها مطمئنًا : « نعم هناك فى جعبة إسرائيل خطط ثلاثة لزيادة كمية المياه ولكن قبل أن أُلقى بالواحدة تلو الأخرى على مسامعكم أسألك : هب أنك أسلمت للنوم بعد طول عناء وتغافلت عن غلق باب الشقة فجاء اللص وسرق ما قوى على حمله ، فعلى من يقع اللوم ، أيقع عليك أنت ، أم على اللص ؟

المرأة فى خجل : « بل يقع اللوم علىَّ أنا » ..

النيل : « هب أنك تركتى الطعام والشراب الطازج للقطط والكلاب تلعق فيهما ، فلما قام زوجك فعنفك أبيت أن تلومى نفسك فقمت فلُمت القطط والكلاب زاعمة أن بينك وبينهم ألفة وعهد بعدم الإعتداء ، فهل ما فعلتيه هو الصواب وأنت تعلمين أنه لا ألفة ولاعهد للقطط والكلاب » ؟

المرأة منكسة الرأس : « لا والذى نفسى بيده إنه الحق بعينه » .

النيل : والآن إليك بالخطط الثلاثة :

الخطة الأولى : من سنة ١٩٥٣ إلى سنة ١٩٦٠وكانت لزيادة كمية المياه من ٨١٠مليون متر مكعب إلى ١٧٣٠ مليون متر مكعب .

الخطة الثانية : من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٥ وكانت لزيادة مساحة الأراضى المروية من ٨٨٠ ألف دونم إلى ٣ ملايين دونم .

أما الخطة الثالثة : فكانت من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٧٤ وهى ترمى لزيادة كمية المياه ٩٢ مليون متر مكعب لتصل فى المرحلة الثانية إلى ٢٠٠ مليون متر مكعب [١].

---

(١) النيل فى خطر ، كامل زهيرى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٩ ، صـ ١٠٨ .

والمعـروف أن الاتجاه الجـديد فى اسـرائيل هو الإتجـاه جنوبًا إلى النقب ، حـتى ذهب الرأى الحـصيف إلى أن توازن اسـرائيل وانتفـاخهـا باصلاح النقب ، سـواء عن طريق بيع ميـاه النيل ، أو المشاركة فى مشـروعات مشتـركة سيؤدى إلى إضـافة أربعة ملايين صهيونى ، وهذا يجـعل اسرائيل أقوى دولة فى الشرق الأوسط بلا منازع على مدى عشرين عامًا ٠

ورغم أن اسـرائيل اسـتنفـذت كـل قطرة مـاء من الأنهـار ، سـواء الأردن ، أو العرجـون ، وكذلك كل قطرة من مـاء الأمطار ، أو تحلية الميـاه المالحه ، أو حـتى إعادة تصفية مياه المجارى ٠٠ ورغم أن إسرائيل تحلم آناء الليل وأطراف النهار بكوب عسل مـ ـاء النيل ، إلا أنها تعلم علم اليقين أن هذا يُعد ضربًا من الخيال ، أو بالأحرى يُعد من المستحيلات الثلاثة (الغول ، والعنقاء ، والخل الوفى) أتدرون لماذا » ؟

الأصدقاء فى دهشة : اللهم لا ٠٠

النيل : « لأنهـا تدرى بما لديهـا من وقـاحة ، ومكر ، وعلـم ، وغرور وتعـالى ، وذلة ومسكنة ، أن كـوب الماء ورغيف الخبز هـما الحياة ، وأنهـما معا شـعلة الثورات الداخلية ، فما الحال إذا كان السارق هو العدو اللدود إلى أن تقوم الساعة » ؟ !!

وإن كنتم فى شك ولـو للحظة واحـدة فلْتـسـرعـوا فى الخطو ولتـسـألوا دمـاء الشهـداء الذكية التى خرجت هى الأخـرى من مكامنها لتدافع عن الوطن ، ولتـسألوا حصون وقـلاع بنى صهيون وأسلـحتها الحديثـة ماذا فعلت أمام نداءات « اللّه أكبر » الصادرة من قلوب وحناجر ملائكة العاشر من رمضان » ؟ !!٠

عندما فـرغ النيل من حديثه مع أبناء مصـر نظر إليهم وقال لهم والبشـاشة تعلو

وجـهـه : « أعلم أن حـبكم لى يزيد ويفـيض ، بل لعله يفـور من كـثـرته ، وأن الذين يعبثون بمائى ومجراى يفعلون ذلك عن جـهالة ، أو عن عمد ، فإن كانوا يفعلون ذلك عن جهالة فوسـائل الاعلام المرئية وغير المرئية كفيـلة بهم ، وأما إن كانوا يفعلون ذلك عن عمـد فالضرب بشـدة على أيديهم بلا هوادة هو السيف المسلـط على رقابهم وهو الوسيلة التى تجعلهم يكفون عن هذا العـبث الماجن » ٠٠ يصمت النيل هنيهة ثم يقول مرة أخرى : « ولفـرط حبى لهذا الشعب العظيم اسـتصرخكم أن تعلموا أطفـال مصر فور إدراكهم لـلحياة أن النيل هو مصـر ، ومصر هى النيل ، فينشـأ الأطفال والنيل فى عيونهم بمثابة الوطن » ٠

ويأتى وقت الغذاء فيتحرك النيل يَحضُن الحـقول ، وتتمايل الأغصان فرحة به ، ويعود أبناء مصـر أدراجهم إلى دورهم وصورة النيل العظيم أمامـهم ، ومن خلفهم ، وفى قلوبهم ٠

* * * * *

المراجـــــع

١ ـ القرآن الكريم ٠

٢ ـ صحيح البخارى ٠

٣ ـ النيل حياة نهر لإميل لودفيغ ترجمة عادل زعيتر ٠

٤ ـ المحاسن الباهرة فى مصر والقاهرة ، لأبو المحاسن بن تغرى بردى ، الجزء الثانى .

٥ ـ النيل فى الأدب الشعبى ، د٠ نعمات أحمد فؤاد ٠

٦ ـ تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعونى ، المجلد الأول ٠

٧ ـ فتوح مصر وأخبارها ، لابن عبد الحكم ٠

٨ ـ نيل مصر تاريخ ، حضارة ، كيان ، الهيئة العامة للاستعلامات ٠

٩ ـ العدد الثالث من مجلة البيئة ، جمعية مؤسسات الأعمال ، سبتمبر ١٩٩٧ ، تحقيق شيرين نصر .

١٠ـ العدد رقم (٤٦) من مجلة أكتوبر المؤرخ ٢٤ ديسمبر ١٩٧٩ ٠

١١ ـ قصص الأنبياء المسمى بعرائس المجالس للثعلبى ٠

١٢ ـ قصص الأنبياء للأمام أبى الفداء اسماعيل بن كثير ، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز ٠

١٣ ـ ديوان الأعشى الكبير ، تحقيق دكتور / محمد حسين ٠

١٤ ـ ديوان أبو نواس ٠

(15) Memorandum Of Understanding On Scientific And Technical Cooperation Between the Ministry Of Public Works And Water Rsources Of The Arab Republic Of Egypt And The Ministry Of Energy, Water And Natural Resources Of The Republic Of Rwanda .

١٦ـ ديوان البهاء زهير ٠

١٧ ـ نهر النيل فى المكتبة العربية ، لمحمد حمدى المناوى ٠

١٨ ـ النيل فى عصر المماليك ، د٠ محمد رزق سليم ٠

١٩ ـ مسالك الابصار ، لابن فضل العمرى ، جـ ١ ٠

٢٠ ـ نهاية الأرب للنويرى ، جـ ١ ٠

٢١ ـ ديوان حافظ ابراهيم ، ص ١ ٠

٢٢ ـ ديوان القاهرة ، لحزين عمر ٠

٢٣ ـ أحمد شوقى حياته وشعره ، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر ، بيروت الطبعة الأولى سنة ١٩٨٧ ٠

٢٤ ـ أغنيات لعشاق الوطن ، لمحمد التهامى ٠

٢٥ ـ مواويل النيل المهاجر ، د٠ حسن فتح الباب ٠

٢٦ ـ مجلة الدراسات الإفريقية ، د٠ فاروق عبد الجواد متولى شويقه ٠

(27) Halse F: the Human SPecies, An Introduction to Physical Anthooplogy 2nd ed New York Random House, 1971,p335 , D'Hrtefeit, Mareel : the Rwanda of Rwand , In Cibbe , james L . (ed) , peoples of Africs

(28) New York Hold Rinehert , 1965, p. 4

(29) Bolds by , Richard A. Race and races, New York, The Macmillan

٣٠ ـ النيل الخالد ، د٠ محمد محمود الصياد ٠

٣١ ـ النيل فى خطر ، كامل الزهيرى ٠

٣٢ ـ مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية ، مختار السويفى ، الدار المصرية اللبنانية

٣٣ ـ المقريزى الخطط ٠

حفنى مصطفى فى كتابه (حديث النيل)

بقلم

الشاعر د . حسن فتح الباب

من الظواهر الأدبية السلبية التى طالما استرعت نظرى فى أثناء قراءاتى للأنواع الإبداعية المختلفة من شعر وقصة ورواية ومسرحية قلة الإنتاج الأدبى الذى استوحى نهر النيل ولاسيما إذا قورن هذا الإنتاج بما كتبه أدباء فى بلدان أخرى عن أنهارها التى لا تطاول عظمة النيل ودوره فى إنشاء أرقى وأخلد حضارة إنسانية فى فجر التاريخ ، أو تماثل تشكيلة لخصائص شعبه فى قدرته على البناء وتحدى العقبات ومقاومة الغزاة ورقة الطبع والسماحة والإيثار وتآخى أصحاب الديانات .

يكفى أن تلقى نظرة على نهر (بردى) فى دمشق ، فتعجب كيف ألهم هذا النُهير الذى لا يعدو أن يكون بحجم فرع صغير من فروع النيل أو تُرعة .. كيف ألهم عشرات الشعراء إن لم يكن المئات من أبنائه ما يجلّ عن الحصر من روائع القصائد والأناشيد والأهازيج التى خلدت فى تاريخ الأدب العربى الحديث . بل امتد هذا الإلهام إلى شعراء عرب آخرين مثل شوقى فهو القائل سنة ١٩٢٦ فى نكبة دمشق بالعدوان الاستعمارى الفرنسى وسقوط كثير من الضحايا فى المظاهرات الثائرة :

سلام من صبا بردى أرق ... ودمع لا يكفكف يا دمشق

كما أوحى نهر السين فى باريس إلى الأدباء الفرنسيين أجمل دواوين الشعر وأروع الروايات والقصص والأفلام السينمائية ، وهو النهر الصغير الذى لا يقارن بالنيل سيد الأنهار فى القارات جميعاً ، والذى تستمد منه شعوب كثيرة حياتها إنساناً وحيواناً ونباتاً حتى قال عنه المؤرخ الإغريقى هيرودوت" إن مصر هبة النيل " وكتب عنه الرحالة والمؤرخون الأجانب أكثر مما كتبوا عن غيره من الأنهار ، وهم يرصدون مساره من هضبة الحبشة حتى دلتا مصر شمالاً .

ولكن النيل لم يحظ من أبنائه بإبداع يتكافأ مع جلاله وجماله وتاريخه المجيد ودوره فى رحلة الخصب والنماء ، بحيث تصبح لنا نحن المصريين ثقافة نيلية تصل ماضينا بجوانبه المضيئة الفرعونية والعربية والإسلامية مجتمعة منصهرة فى بوتقة واحدة بحاضرنا ، وتُخلص هذا الحاضر من جوانبه المعتمة ، وترسم لنا غداً أفضل مكاناً تحت الشمس ، وتميزنا بين شعوب العالم . نعم نحن نفتقد هذه الثقافة ولانجدها متحققة إلا فى القلة القليلة من الباحثين والمبدعين الذين استوعبوا تراثنا الحى ومحوره نهر النيل ، فلم يضنوا عليه بعلمهم وجادوا له بنور عيونهم وهم يكتبون عنه تحت مصابيح الفكر والوجدان ، ويبادلون نيلهم عطاء بعطاء ،

ووفاء بوفاء ، حتى لا يقول الناس إننا لا ننتمي إلى نهرنا العظيم إلابالاسم .

لذلك أسعى جاهداً منذ بواكير الشباب لاقتناء الكتب النثرية والشعرية التى تفى بحق النيل علينا . وقد بدأت مسيرتى الأدبية بالتغنى به واستلهام قصائدى وسر حياتى الشعرية منه . وكم قرت عينى حين أهدانى الصديق الأديب الأستاذ / حفنى مصطفى عضو اتحاد كتاب مصر ، ومدير تحرير جماعة الجيل الجديد كتابه (حديث النيل) مشاركاً به فى الجهود العلمية والأدبية التى بذلها بعض الرواد فى سبيل توعية القراء والشباب منهم خاصة بتاريخ النيل وجغرافيته وحضارته ، وما يستوجبه من ضرورة الحفاظ على مائه من التلوث وإنقاذه من آفة عقوقنا حتى يعود إليه صفائه وبهائه وليكون كما كان قديماً مصدر حياة فلا يحمل الموت فى أحشائه وعلى صفحته التى عبث بها العابثون فملئوها سماً زعافاً .

تلك هى المعانى والقيم التى يبثها حفنى مصطفى فى كتابه الذى يتميز بصياغته فى قالب قصصى عبر الحوارات التى تجرى بين النيل وبين بعض أبنائه .وقد جمع الكتاب بين الأدب والعلم ، وعبّر عن هذه الصيغة بقوله : (ينساب النيل فى تؤدة ووقار أحياناً ، وفى غضب وثورة أحياناً أخرى . وفى كل الأحوال تنساب بانسيابه دماء الحياة والخلود فى شرايين الخلق شجراً وزهراً وأبدية لا تنقطع .. هو يُعطى الحياة للكائنات وأولها البشر ، ولكنه لا يأخذ من هؤلاء البشر غير الفساد والهلاك والشيخوخة القاهرة .. فمتى تقصر يد الإنسان عن قصف عمر النهر العجوز الشاب ؟) .

وقد قسم المؤلف كتابه قسمين غلب الطابع الأدبى على الأول والطابع العلمى على الثانى وإن جاء أيضاً فى قالب حوارى ، ودل كلاهما على إلمام كبير بمعظم ما كتب عن النيل ، كما دلت على ذلك كثرة المصادر والمراجع وإن كانت ينقصها موسوعة العلامة المؤرخ «سليم حسن» عن الحضارة المصرية القديمة ، وموسوعة الدكتور جمال حمدان المعنونة (شخصية مصر - دراسة فى عبقرية المكان) ، ومما يُحمد للأديب الباحث رده الموضوعى على أخطاء « إميل لو دفيع » فى كتابه عن نهر النيل ، والمورخ الإنجليزى « بتلر » كما يُحمد للمؤلف أيضاً إشادته بدور المسيحيين فى الحضارة المصرية جنباً إلى جنب المسلمين . ومن محاسن الكتاب إيراده كثيراً من المأثورات الشعبية بالعامية المصرية عن النيل ، بعد أن سرد ما قيل فيه من أشعار فى مختلف العصور .

وهكذا يُسهم حفنى مصطفى فى إحياء الذاكرة النيلية فى أرواحنا وعقولنا وضمائرنا وحث أبناء شعبنا بمختلف فئاته على رعاية مصدر وجودهم ومعيشتهم وحضارتهم حتى يعود اليوم الذى كان المصرى القديم فيه يُقسم يوم الحساب أنه لم يلوث ماء نهر النيل .

محتويات الكتاب

محتويات الكتاب